آدابُ النّفوس

تأليف
أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي
ت (٢٤٣)

تحقيق
مجدي فتحي السيد

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ...

نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدًا عبده ورسوله - ﷺ - .

﴿ يـاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ، وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾(١) .

﴿ ياأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُم الَّذي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ،وخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ، وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَآءً ، واتَّقُواْ اللهَ الَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ ، إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾(٢) .

﴿ يـاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ وَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيدًا ، يُصْلِح لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ، وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ، وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوزًا عَظِيمًا ﴾(٣) .

---

(١) سورة آل عمران : ١٠٢ .

(٢) سورة النساء : ١ .

(٣) سورة الأحزاب : ٧٠ - ٧١ .

بين يدي الكتاب

في البدء أقول :

يُعد هذا الكتاب من النفائس والمكنونات التي وصلتنا من كلام أهل الصدر الأول عن النفس وآدابها .

ولما كنت قمت بتحقيق « عيوب النفس » للسلمي ، كان المناسب أن أقوم بالبحث عما صنف في آداب النفس ، وكان من توفيق الله لي العثور على هذا المخطوط الطيب الجدير بالقراءة ، والحري بتحقيقه .

وبعد ..

أخي المسلم ... أختي المسلمة

من تأمل حال الخلق اليوم وجدهم كلهم إلا أقل القليل ممن غفلت قلوبهم عن ذكر الله سبحانه وتعالى ، وانشغلوا بالفانيات عن الباقيات الصالحات ، وتنافسوا فيما يفنى ، وتسامحوا فيما يبقى أبد الآباد . وصار الخلق إلا أقل القليل يتبعون أهواءهم ، ولا يعرفون ما يُصلح نفوسهم ، إنما هم في غيهم ساهون ، وعن الآخرة لاهون .

وقد نسوا أو تناسوا أن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم ، وجعل ثمنها الجنة .

فسلعة رب السموات والأرض مشتريها ، والنظر إلى وجهه الكريم ، وسماع كلامه في داره ثمنها ، والرسول ﷺ واسطة العقد ، وبعد ذلك يهمل المرء نفسه ، ويدسها في الآثام والذنوب ؟ !

كيف يليق بالعاقل أن يضيعها ويهملها ، ويبيعها بثمنٍ بخسٍ ، في دارٍ فانية ؟

وهل هـذا إلا أعظم الخسـارة يوم تثقـل مـوازين المتقين ، وتخف مـوازين المبطلين ، يوم الحسرة والندامة ، في يوم القيامة .

فيـا من تبحث عن تـأديب نفسـك ، وتـزكيتهـا فهـذه « آداب النفـوس » ويامن تريد النجاة بنفسك فتعلم « آداب النفوس »

وبعد ...

فعلى أملٍ بلقاءٍ متجددٍ مع ما ينفعنـا في الـدنيـا والآخرة أسـالـه سبحـانـه وتعالى المزيد من التوفيق والسداد .

وآخر دعوانا أن الحمد لله

رب العالمين

أبو مريم

وصف مخطوط الكتاب وتوثيقه

عثرت على نسختين لهذا الكتاب الطيب ، وكلاهما بالقاهرة المحروسة .

١ ـ نسخة دار الكتب المصرية ، وتقع تحت فن « تصوف » ، فمن مجموعة تبدأ من (٥٩ أ) إلى (١٠٣ ب) ، رقم المخطوط (٤٠٦٤) .

وتقع هذه النسخة في (٤٦) ورقة أي (٩٢) صفحة ، في كل صفحة حوالى (٢٠) سطرًا ، ومنها نسخة ميكروفيلمية برقم (٥٩٩٨) .

وخط هذه النسخة ردىء للغاية ، وقد تم نسخها سنة ٥٢٢هـ ، فهي نسخة عتيقة ، وهي الأصل « أ » الذي اعتمدت عليه في إخراج الكتاب .

٢ ـ نسخة جامعة القاهرة برقم (٢٦٠٤٨) ، وتقع في (٥٠) ورقة ، أي (١٠٠) صفحة ، في كل صفحة (٢٥) سطرًا ، وهي نسخة حديثة ، مكتوبة بخطٍ جميل واضح .

٣ ـ نسخة كوبريلى برقم (٧٢٥) ، تقع في (٤٢) ورقة ، أي (٨٤) صفحة ، منسوخة في القرن الحادى عشر الهجري .

ولقد نسبوه أصحاب التراجم ، انظر على سبيل المثال :

١ ـ تاريخ بروكلمان (٤/٥٩) .

٢ ـ تاريخ التراث العربي لسزكين (٢ / ٤٤٠) .

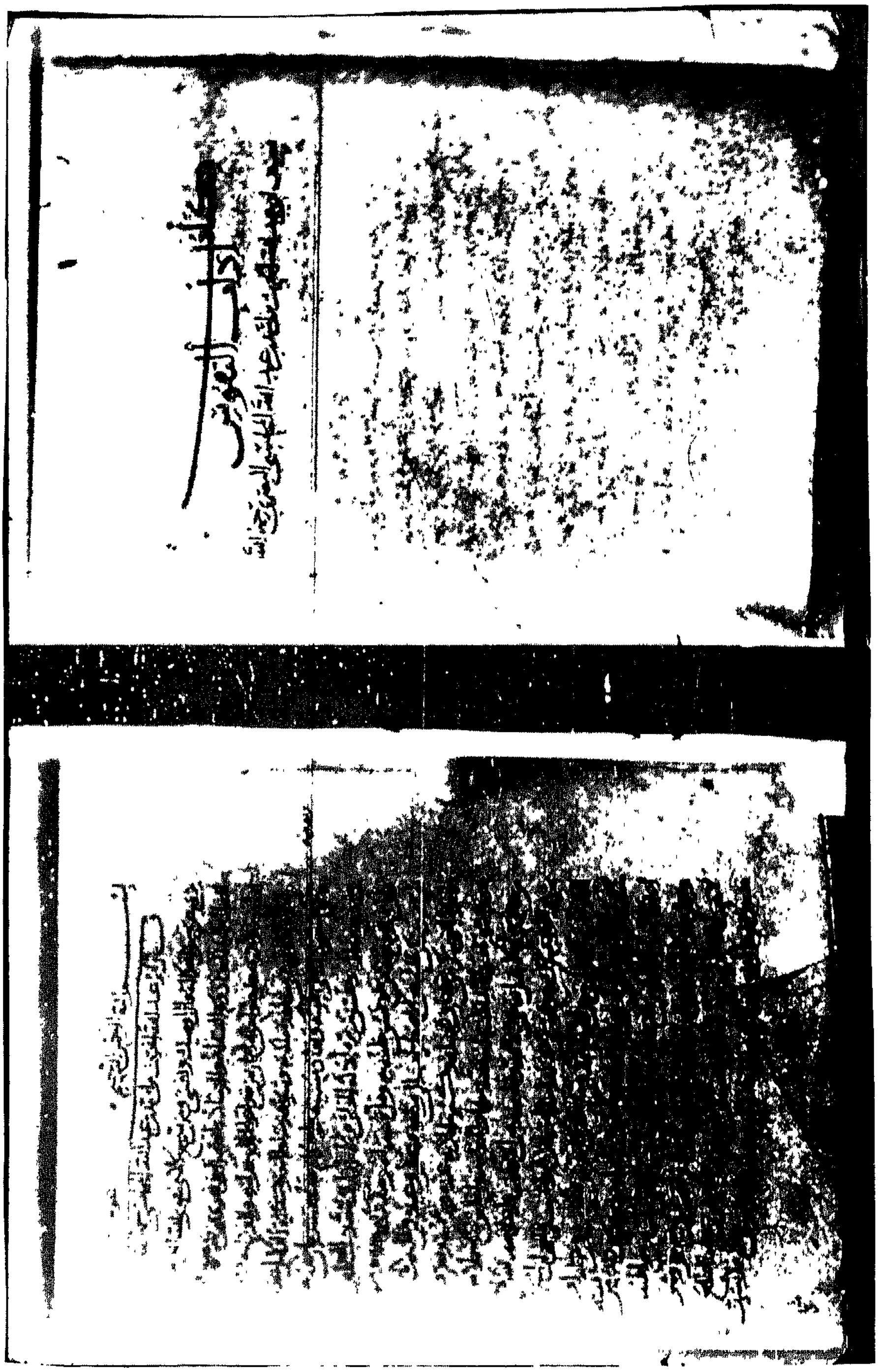
٣ ـ الأعلام للزركلي (٢ / ١٥٣) .

وبعد ..

فقد قسمت الكتاب إلى فقرات ، ووضعت لها عناوين داخلية ، ثم قمت بتخريج ما في الكتاب من آيات قرآنية ، وأحاديث نبوية ، وأوضحت معاني

بعض الكلمات ، ولعليّ بذلك أكون قد قـدمت مـا أستطيع ، وحسبي الله ونعم الوكيل ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

أبو مريم / مجدى فتحى السيد
طنطا ـ مصر



الورقة الأولى من « الأصل » المخطوطة

آدَابُ النّفوُسُ

مقدمة المصنف :ـ

بسم الله الرحمن الرحيم

عونك اللهم

١ ـ [قال أبو عبد الله الحارث بن أسد بن عبد الله المحاسبي رحمه الله] (١).

روي عن بعضِ الحكماء أنه قال :ـ

« أوصيك ونفسي ، ومن سمع كلامي ، بتقوى الله الذى خلق العباد ، وإليه المعاد ، وبه السداد والرشاد » .

فاتقه ياأخي تقوى من قد عرف الله منه ، وقدرته عليه . وآمن به إيمان من قد أقر له بالوحدنية ، والفردانية ، والأزلية ، [والأبدية] (٢) لما ظهر من مشاهدة ملكوته ، وشواهد سلطانه ، وكثرة الدلائل عليه ، والآيات التى تدل على ربوبيته (٣) ، ونفاذ مشيئته ، وإحكام صنعته ، وبيان قدرته على جميع خلقه ، وحسن تدبيره ، ألا له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين .

كفى بالله ثقة :

٢ ـ وثق به ياأخي ثقة من قد حسن ظنه به ، وقلت تهمته له ، وصدق بوعده ، ووثق بضمانه ، وسكن قلبه عن الاضطراب إلى وعده ، وعظيم وعيده في قلبه .

واشكر ياأخي شكر من قد عرف فضله ، وكثرت أياديه عنده ، وبره به .

وتعرف نعمه الظاهرة والباطنة ، الخاصة منها والعامة ، وأخلص له

---

(١)،(٢) سقط من النسخة (ب) وأثبته من (أ) .

(٣) في النسخة (أ) ربانيته .

إخلاص من قد عرف أنه لا يقبل له عملاً إلا بعد تخليصه من الآفات ، وإخلاصه لله لا شريك له ولا يشرك مع الله في عمله أحدًا سواه .

إياك وإشراك المخلوقين :

٣ ـ واعلم ياأخي ، أن إشراك المخلوقين في العمل : أن يتزين لهم العبد في مواطن الامتحان ، فيكذب في عمله ، أو يرائي ليُكرم ، ويُعظم لجميل قوله ، ومحاسن ما يظهر من عمله وهو يعرف ذلك من نفسه ، أو يجهله منها . [لا ينجو من ذلك] [١] ولا يسلم ياأخي من شره إلا من هرب من مواطنه ويعمل، وهو لا يحب أن يطلع له مخلوق على عمل ، وإن اطلع له مخلوق على عمل وهو لا يحب اطلاعه ، فمن صدقه : ألا يحب أن يحمده ذلك المخلوق على ما اطلع عليه من عمله ، وإن حمده [أحد] [٢] وهو لا يحب حمده فلا يسر بحمده له على عمله ، فإن سره فلا يسرن لمعنى دنيا بسببٍ من الأسباب .

آداب النفس مع الله : ـ

٤ ـ ثم اصدق ياأخي في قولك وفعلك ، صدق من قد عرف أن الله مطلعٌ على دخيلة أمره ، وسره وعلانيته ، وما طوى عليه ضميره .

وتوكل عليه ياأخي توكل من قد وثق بوعده ، واطمأن إلى ضمانه ، ثقة منه بوفائه ، ورضا منه بقضائه ، واستسلامًا منه لأمره ، وإيمانًا بقدره ، ويقينًا صادقًا منه بجنته وناره .

وخفه ياأخي خوف من قد عرف سطوته ، وشدة نقمته ، وأليم عذابه ، وَمثُلته [١] ، وآثاره ووقائعه بمن خالف أمره وعصاه ..

---

(١) سقط من النسخة (ب) ، وهو في النسخة (أ) .

(٢) سقط من النسخة (أ) ، وأثبته من (ب) .

(٣) أي آثار الانتقام من الأمم العاصية ، ومنه قوله تعالى : ـ ﴿ **وقد خلت من قبلهم المثلات** ﴾ سورة الرعد : ٦ .

وتعرف ياأخي : أنه لا تمسك لأحد خذله ، ولا ضيعة على أحدٍ وفقه وسدده ، وحاطه ، وحفظه ، وأنه لا صبر لأحد على عقوبته ونكاله ، وتغير نعمه .

٥ - وارجه ياأخي رجاء من قد صدق بوعده ، وعاين ثوابه .

واشكره ياأخي شكر من قبل منه محاسنه ، وأصلح عمله ، وحباه من مزيد أياديه ، [وجزيل ثوابه] (١) ، وأناله من مزيد كراماته ما لم يستأهله بعمله .

واستحيه ياأخي حياء من قد تعرف كثرة تفضله ، وجزيل مواهبه ، وعرف من نفسه التقصير في شكره ، وقلة الوفاء منه بعهده ، والعجز عن القيام بأداء [ما] (٢) لزمه من حقه ، ثم لا يتعرف من خالقه إلا جميل ستره ، وعظيم العافية ، وتتابع النعم ، ودوام الإحسان إليه ، وعظيم الحلم والصفح عنه .

ثم اعلم ياأخي أن الله جل ذكره قد افترض فرائض ظاهرة وباطنة ، وشرع لك شرائع ، دلك عليها ، وأمرك بها ، ووعدك على حسن أدائها جزيل الثواب وأوعدك على تضييعها أليم العقاب ، رحمة لك ، وحذرك نفسه شفقة منه عليك (٣) .

فقم ياأخي بفرائضه ، والزم شرائعه ووافق سنة نبيه ﷺ واتبع آثار أصحاب نبيه والزم سيرتهم ، وتأدب بآدابهم ، واسلك طريقهم ، واهتد بهداهم ، وتوصل (٤) إلى الله بحبهم ، وحب من أحبهم ، فهم الذين أنابوا إليه ،

---

(١)،(٢) سقط من النسخة (ب) .

(٣) يتضح ذلك من قوله تعالى : ﴿ **ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد** ﴾ سورة آل عمران : ٣٠ .

(٤) في النسخة (ب) : توسل بالسين ، وكلاهما يصلح .

وقصدوا قصده ، واختارهم لصحبة نبيه ، فجعلهم لهم أحبابًا وأخدانًا (١) .

علامة حب الصالحين : -

٦ - واعلم ياأخي ، أن علامة حبك إياهم : لزومك محجّتهم ، مع استقامة قلبك ، وصحة عملك ، وصدق لسانك ، وحسن سريرتك لأمر دنياك وآخرتك كما كان القوم في هذه الأحوال [كلها] (٢) ، فهذا يحقق منك صدق دعواك لحبهم ، والتمسك بسنتهم .

فإذا صحت فيك ومنك هذه الخلال كصحتها منهم وفيهم ، كنت صادقًا في حب القوم وحسن الاتباع لهم .

وإن كنت مدعيًا لحبهم ، وأنت مخالف لأفاعيلهم ، عادل عن سبيل الاستقامة لطريق المحجة (٣) التي كانوا عليه ، فأنت مائل إلى موافقة هواك ، عادل عن مسيرتهم ، ولست بصادقٍ في دعواك (٤) .

فلا تجمعن على نفسك الخلاف لمحجتهم ، والدعوى أنك على سبيلهم ، فمتى فعلت ذلك صح فيك (٥) جهل وكذب ، وتعرضت للمقت من اللطيف الخبير .

ولكن إقرارًا واستغفارًا فذلك أولى [وأشبه] (٦) بمن كانت هذه صفته [في معرفة الحق] (٧) .

---

(١) الخدن : الصديق ، وهو الخدين أيضًا ، أي الذي يُخادنك فيكون معك في كل أمر ظاهر وباطن .

(٢) ما بين المعكوفتين سقط من النسخة (ب) .

(٣) المحجة : الطريقة ، والهدى .

(٤) كل هذا يوضح عنصر الاتباع عند المحاسبي رحمه الله .

(٥) في النسخة (ب) : منك .

(٦)،(٧) سقط من النسخة (ب) .

٧ ـ فليكن لك يا أخي في الحق نصيب ، فإنه قد قيل : ليأتين على الناس زمان يكون المقرّ فيه بالحق ناجيًا .

فإذا أنت عرفت الحق فأقررت به ، ودلك الحق على أن لله عليك مع الفرائض الظاهرة فرضًا باطنًا ، وهو تصحيح السرائر ، واستقامة الإرادة [١] ، وصدق النية ومفاتشة الهمة ، ونقاء الضمير من كل ما يكره الله ، وعقد الندم على جميع ما مضى من التويث [٢] بالقلوب[٣] والجوارح على ما نهى الله عنه .

وهذا أمرٌ جعله الله مهيمنًا على أعمال الجوارح ، فما كان من أعمال العبد من عملٍ ظاهرٍ قوبل به من الباطن ، فما صح ووافق باطنه صلح ،وقبل ظاهره ، وما خالف وفسد باطنه ؛ ردت عليه أعمال ظاهرة وإن كثرت ، وخسر ظاهرها لفساد باطنها .

ويحقق ذلك كله قول الله تعالى : ﴿ **وذروا ظاهر الإثم وباطنه إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون** ﴾[٤] .

وقول النبي ﷺ : « إنما الأعمال[٥] بالنية ، وإنما لامرئ ما نوى [٦]» .

وقول : « في ابن آدم مضغة إذا صلحت صلح سائر جسده ، وإذا فسدت

---

(١) أي لا تريد بعملك سوى وجه الله عز وجل ، مع صلاح العمل .

(٢) التويث أي الوقوع في المعاصي والآثام ، وقد تحرفت في النسخة .

(ب) إلى « التوائب » .

(٣) في النسخة (ب) القلب .

(٤) سورة الأنعام : ١٢٠ .

(٥) في النسخة (ب) العمل .

(٦) **حديث صحيح** . أخرجه البخاري (١/ ٢) ، (٨ / ١٧٥) ، ومسلم (١٩٠٧) ، وأحمد (١ / ٢٥ ، ٤٣) ، وأبو داود (٢٢٠١) ، الترمذي (١٦٤٧) ، والنسائي (١ / ٥٨ ، ٦٠) ، وابن ماجه (٤٢٢٧) ، وابن المبارك (٦٢) في الزهد ، وابن حبان (١٨١٨) ، (١٨٢٠) ، وابن خزيمة (١٤٢) ، (٤٥٥) .

فسد سائر جسده » يريد عمله . « ألا وهي القلب »[١] .

٨ ـ وقوله : « إن الملك ليُكثِّر أعمال العبد بعد وفاته عند الله تعالى ، فيقول : عبدك لم أزل معه حتى توفيته » .

ثم يذكر محاسن عمله ، فيكثره ويطيبه ، ويحسن الثناء عليه ، فيقول الله تعالى للملك : « أنت كنت حفيظًا على عمل عبدي ، وأنا كنت رقيبًا على قلبه ، وإن عمله الذى كَثَّرته وطيبته[٢] لم يكن لي خالصًا ، ولست أقبل من عبدٍ [من عبيدى][٣] إلا ما كان لي خالصًا »[٤] .

من آداب النفس : المحاسبة : ـ

٩ ـ فاعرف ياأخي نفسك ، وتفقد أحوالها ، وابحث عن عقد ضميرها ، بعناية منك ، وشفقة منك عليها مخافة تلفها ، فليس لك نفس غيرها ، فإن هلكت فهى الطامة الكبرى ، والداهية العظمى .

فأحدَّ النظر إليها ياأخي بعين نافذة البصر ، حتي تعرف آفات أعمالها[٥] ، وفساد ضميرها ، وتعرف مايتحرك به لسانها ، ثم خُذ بعنان هواها ، فاكبحها بحكمة الخوف ، وصدق الخلاف عليها ، وردها بجميل الرفق إلى مراجعة الإخلاص في عملها ، وتصحيح الإرادة في ضميرها ، وصدق المنطق

---

(١) **حديثٌ صحيحٌ** . أخرجه أحمد (٤ / ٢٦٧ ، ٢٦٩ ، ٢٧١ ، ٢٧٥ ،) ، والبخاري (٥٢ فتح) ، (٢٠٥١) ، ومسلم (١٥٩٩) ، وأبو دواد (٣٣٢٩) ، (٣٣٣٠) ، والترمذي (١٢٠٥) ، والنسائي (٧ / ٢٤٢ ـ ٢٤٣) ، وابن ماجه (٣٩٨٤) ، والدارمي (٢ / ٢٤٥) ، وابن حبان (٢ / ٥١) ، وابن الجارود في المنتقى (٥٥٥) ، والبغوي (٢٠٣١) في شرح السنة ، والبيهقي (٥ / ٢٦٤) في سننه الكبرى . .

(٢) في النسخة (ب) كثرتها وطيبتها .

(٣) سقط من النسخة (ب) .

(٤) لم أقف عليه .

(٥) في النسخة (ب) عملها .

في لفظها ، واستقامة النية في قلبها ، وغض البصر عما كره مولاها ، مع ترك فضول النظر إلى ما قد أبيح النظر إليه ، مما يجلب على القلب اعتقاد حب الدنيا .

وخذها بالصمم عن استماع شيء مما كره الله من الهوى والخنا[١] ، وفي تناولها ، وقبضها ، وبسطها ، وفي فرحها وحزنها .

وخذها بتصحيح ما يصل إلى بطنها من غذائها ، وما تستر به عورتها ،

وخذها بجميع همها كلها ، وامنع فرحها عن جميع ما كره مولاها .

وليكن [مع][٢] ذلك منك تيقظ وإزالة للغفلات عن قلبك عند كل حركة تكون منك وسكون ، وعند الصمت والمنطق ، والمدخل والمخرج ، والمنشط ، والحب والبغض ، والضحك والبكاء .

فتعاهدها ياأخي في ذلك كله ، فإن لها في كل نوعٍ ذكرناها من ذلك كله سبب لهواها ، وسبب لطاعتها ، وسبب لمعصيتها .

فإن غفلت ووافقت هواها ، وغفلت عن مفاتشة[٣] همها ، كان جميع ما ذكرت لك من ذلك كله معاصي منها .

وإن سقطت[٤] بالغفلة ، ورجعت بالتيقظ إلى خلاف هواها ، فكان معك الندم على غفلتك وسقطتك ، رجع ذلك كله إحسانًا وطاعات لك[٥] . فتفقدها ياأخي بالعناية المتحركة منك لها مخافة تلفها ، فإنك تقطع عن

---

(١) الخنا : الفاحشة .

(٢) سقطت من النسخة (أ) .

(٣) أي البحث .

(٤) سقطت : وقعت في المعاصي .

(٥) أي تبدل السيئات إلى الحسنات من واسع رحمة الله تعالى بعبده .

إبليس طريق المعاصي ، وتفتح على نفسك باب الخيرات ، وما التوفيق إلا بالله العلي العظيم .

من أداب النفس : الاتهام

١٠ - واتهم ياأخي نفسك أشد من تهمتك أعدى عدو لك . وخف في حرمة اللسان ياأخي من لسانك أشد من خوفك من السبع الضاري ، القريب المتمكن من أخذك ، فإن قتيل السبع من أهل الإيمان ثوابه الجنة ، وقتيل اللسان عقوبته النار ، إلا أن يعفو الله .

فإياك ياأخي والغفلة عن اللسان ، فإنه سبع ضار ، وأول فريسته صاحبه فاغلق باب الكلام من نفسك بغلقٍ وثيقٍ ، ثم لا تفتحه إلا فيما لابُدَّ لك منه ، فإذا فتحته فاحذر ، وخذ من الكلام حاجتك التى لابد لك منها ، وأغلق الباب .

احذر غفلة اللسان :

وإياك والغفلة عن ذلك ، والتمادي في الحديث ، وأن يستمر بك الكلام فتهلك نفسك ، فإنه يروى عن النبي ﷺ أنه قال لمعاذ بن جبل : « وهل يكب الناس على مناخرهم في جهنم إلا حصائد ألسنتهم » (١) .

١١ - وسأله رجلٌ : ماأتقي ؟ قال : « هذا » (٢) يعني لسانه .

---

(١) **حديثٌ صحيحٌ** . أخرجه أحمد (٥ / ٢٣١) ، والترمذي (٢٧٤٩) ، وابن ماجه (٣٩٧٣) ، والطيالسي (٢٢٠٧) ، والحاكم (٤ / ٢٨٦ ، ٢٨٧) ، وابن أبي شيبة (٩ / ٦٥) في المصنف ، وابن أبي الدنيا (٦) في الصمت .

(٢) **حديثٌ صحيحٌ** . أخرجه أحمد (٣ / ٤١٣) ، (٤ / ٣٨٤) ، مسلم (٣٨) مختصرًا ، والترمذي (٢٥٢٢) ، ابن ماجه (٣٩٧٢) ، والدارمي (٢ / ٢٩٨) ، والطاليسي (٢٢٠٥) وعبد الرزاق (٢٠١١) ، وابن حبان (٢٥٤٣) ، والطبراني (٦٣٩٧) ، (٦٣٩٨) في الكبير .

١٢ ـ وقال له رجلٌ : ما أخوف ما تخاف عليَّ ، فقال : « هذا » (١) وأخذ رسول الله ﷺ بطرف لسان (٢) نفسه .

١٣ ـ وقال له آخر : ما النجاة ؟ فقال : « أمسك عليك لسانك ، وليسعك بيتك ، وابك على خطيئتك » (٣) .

١٤ ـ وقال ﷺ : « من صمت نجا » (٤) .

١٥ ـ وقال : « من سره أن يسلم فليلزم الصمت » (٥) .

١٦ ـ وورد عمر [بن الخطاب] (٦) على أبي بكر رضي الله عنهما ، وهو آخذ [بطرف] (٧) لسانه يبصبصه ، فقال [له عمر] (٨) : ما تصنع ؟ فقال : « هذا الذي أوردني الموارد (٩) .

١٧ ـ وقال ابن مسعود : « ليس شيء أحق بطول سجن من لسان » (١٠) .

---

(١) انظر السابق .

(٢) في النسخة (أ) بلسان نفسه .

(٣) **حديثٌ صحيحٌ** . أخرجه أحمد (٥ / ٢٥٩) ، والترمذي (٢٥١٧) ، وابن المبارك (٤٣) في الزهد ، وابن أبي الدنيا (٢) في الصمت ، وأبو نعيم (٢ / ٩) في الحلية ، والخطيب (٨ / ٢٧١) في تاريخه .

(٤) **حديثٌ صحيحٌ** . أخرجه أحمد (٢ / ١٥٩) ، والترمذي (٢٦١٨) ، والدارمي (٢ / ٢٩٩) ـ وابن أبي الدنيا (١٠) في الصمت .

(٥) **حديث ضعيف جدًا** . أخرجه ابن أبي الدنيا (١١) في الصمت ، والبيهقي (٤٩٣٧) في شعب الإيمان .

(٦) سقط من النسخة (أ) .

(٧) في النسخة (أ) بلسانه .

(٨) سقط من النسخة (ب) .

(٩) **أثرٌ صحيحٌ** . أخرجه عبد الله بن أحمد (ص / ١٣٩) في زوائد الزهد ، ومالك (٣ / ١٥١) في الموطأ ، وعنه أبو نعيم (١ / ٣٣) في الحلية ، وأخرجه ابن أبي الدنيا (١٣ ، ١٩) في الصمت .

(١٠) **أثرٌ صحيحٌ** . أخرجه أحمد (٢ / ١١٠) في الزهد ، وابن المبارك في الزهد (١٢٩) ، وأبو نعيم (١ / ١٣٤) في الحلية ، وابن أبي الدنيا (١٦) ، (٢٣) في الصمت .

[وقال : « لساني سبع أخوف إن أرسلته أكلني » [1]] [2] إلى أخبار كثيرة في اللسان .

١٨ ـ فإياك ياأخي والغفلة عنه ، فإنه أعظم جوارحك عليك جناية ، وأكثر ما تجد في صحيفة أعمالك يوم القيامة من الشر ما أملاه [عليك] [3] لسانك ، وأكثر ما تجد من الخير في صحيفتك ما اكتسبه قلبك . وذلك : أن اكتساب قلوب الحكماء ، وأهل البصائر للخير أعمال خفية ، تخفى على إبليس ، وعلى الحفظة ، فهي أعمال نقية من الفساد ، زاكية ، قد حصلت مع خفة مؤنة على أهلها ، جزيلة الثواب ، مخلصات من عوارض العدو ، ومن هوى الأنفس [4] .

وذلك لأنها أعمال مستورة ، عن أعين العباد خاملة ، وذلك أن العبد يصل إليها قائمًا وقاعدًا ، ومضطجعًا ، فأولئك هم أولو الألباب ﴿ **الذين يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم** ﴾ [5] .

وأكثر ذكرهم التفكر ، قال تعالى : ﴿ **ويتفكرون في خلق السموات والأرض** ﴾ [6] .

فهم أهل الإخمال [7] من المؤمنين ، الذين عبدوا الله عبادة لم تظهر منهم [8] .

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا (٣٩) في الصمت عن بعض الماضين .

(٢) سقط من النسخة (ب) .

(٣) سقط من النسخة (أ) .

(٤) في النسخة (ب) النفس .

(٥) سورة آل عمران : ١٩١ .

(٦) سورة آل عمران : ١٩١ .

(٧) أي أهل الخمول ، الذين يبتعدون عن الشهرة ، وحب الظهور ، والسمعة وانظر أحوالهم ، وكلامهم في الكتاب القيم « التواضع والخمول » لابن أبي الدنيا رحمه الله .

(٨) الإخلاص هو حالهم ، وهو في حقيقته مالا يعلمه ملكٌ فيكتبه ، ولا شيطانٌ فيفسده .

من آداب النفس : تعهد القلب

١٩ ـ وتعاهد ياأخي قلبك بأسباب الآخرة ، وعرّضْه لـذلـك ، وصُنْـهُ من أسباب الدنيا ، ومن ذكر يجر إلى الحرص والرغبة .

ولا تأذنن (١) لقلبك في استصحاب ما يعسر طلبـه ، وينطفىء نور القلب من أجله ، وكن في تأليف مـا بينـه وبين محمود العـاقبـة (٢) حريصًا ، وخوف نفسك عقوبة ما في يديك (٣) من الدنيا ، وقلة أدائك لما يجب عليـك فيـه من الشكر . وأستكثر مـا في يـديـك ، لمـا تعلم من ضعف شكرك ، حتى تشغل (٤) النفس بمـا في يـديهـا عن الفكر في أمر الـدنيـا ، والمحبـة للزيـادة منهـا . فـإذا أجمتها (٥) من ذكر الزيـادة من الـدنيـا وحملتهـا على درجـة الخوف ممـا في يـديهـا قنعت ورضيت ، وعفت عن طلب الدنيا بالحرص والرغبة ورجعت إلى الآخرة بالحرص عليها ، والرغبة فيها ، فإن النفس مبنيـة على أسـاس الطمع . ومخرج الحرص والرغبة من الطمع ، وبناء الأنفس على قواعـد الطمع ، أمـا الطمع في الـدنيـا فيستعمل أداة الطمع في طلب الـزيـادة من الـدنيـا ، وأمـا الطمـع في الأخرة فيستعمـل أداة الطمـع في طلب الـزيـادة من أعمـال الأخرة بـالحرص عليها ، والرغبة فيها .

٢٠ ـ قيل لحكيم : فما آلة الطمع ، وجماع آفاته ؟

قـال : الشَّرَهُ والحِرْصُ ، وهيجـانُ الرغبـةِ ، فعلى أيها (٦) أوقعت طمعهـا أحضرت أداتها ، وجمعت آلتها ، وجدَّت في طلبها .

---

(١) في النسخة (ب) ولا تأذن .

(٢) في النسخة (ب) : العواقب .

(٣) في النسخة (ب) ما في يديه .

(٤) في النسخة (ب) فتشتغل .

(٥) الإجمام : الراحة .

(٦) في النسخة (ب) أيها .

فإذا قهرت صاحبها ـ العبد ـ على موافقة هواها استعبدته ، فأذهلته وأذلته ، وأدهشته ، وأتعبته ، وطيشت عقله ، ودنست عرضه ، وأخلقت[١] مروءته ، وفتنته عن دينه ، وإن كان عالمًا لبيبًا ، عاقلاً ، كيسًا فطنًا ، فصيحًا ، حكيمًا ، فقيهًا ، فلوثته ، وأسقطته ، وفضحته ، فاحتمل لها ذلك كله ، وهوالأريب اللبيب العالم الأديب ، صيرته بعد العلم جاهلاً سفيهًا ، أحمقًا خفيفًا ..

وذلك أنها سَقَتْهُ من موافقة هواها كأسًا سُمًّا صرفًا ، فاستمالته ، فمال بعلمه وعقله وفهمه ، ونفاذ حكمته وبصره ، فأجراه مجرى هوى نفسه ، فعجلت له الفضيحة في عاجل الدنيا ، عند حكمائها وعقلائها ، وأسقطته من عين الله ، وأعين عباده من أهل البصائر ، وأخرت له آجل الندامة الطويلة عند مفارقة الدنيا ، وفي عرصة القيامة ، فإذا قطع عليها العبد الطمع من أسباب الدنيا وغلب بعقله هواها ، رجعت بطمعها [إلى منازل الأخرة وأحضرت أداتها ، واستعملت آلتها فاشتعلت بطلب][٢] أسباب الآخرة لا محالة ، لأنها مبنية[٣] على الطمع فإذا تجردت من طلب[٤] أسباب الدنيا ، وأقبلت على نفسها بالإياس من المخلوقين ، رجعت برغبتها وطمعها إلى طلب[٥] أسباب الآخرة فجدت في طلبها ، واجتهدت ، وعزفت عن الدنيا ، وباينت الهوى ، وخالفت العدو ، وتبعت العلم ، وكانت مطية للعقل ، صابرة على مر ما يدل عليه الحق فنجت وأنجت .

---

(١) ما بين المعكوفتين سقط من النسخة (ب) .

(٢) في النسخة (ب) بنيت .

(٣)،(٤) سقطت كلمة (طلب) من النسخة (ب) .

(٥) في النسخة (ب) عرصات ، والعرصة : كل بقعة واسعة ليس فيها بناء .

٢١ ـ فتعاهد ياأخي قلبك عند هَمِـه ، وألزمـه الفكرة في أمر المعـاد فلا يفارق قلبك ذلك (١) ، وتوهم بقلبك هول المطلع عند مفارقة الدنيـا ، وترك مـا قـد بـذل أهلهـا فيـه مُهج نفـوسهم ، وتـدنيس أعراضهم ، وإخـلاق مروءاتهم ، وانتقـاص أديـانهم ، ثم تركوا ذلـك كلـه ، وقـدموا على الله فرادى آحـاد ، مـع ما قد وردوا عليـه من وحشـة القبر ، وسؤال منكر ونكير ، وأهوال القيـامـة ، والوقـوف بين يـدي الله ، والمسـاءلـة عن جميـع مـا كان منـه (٢) ، من قـول أو فعل ، عن مثاقيل الذر ، وموازين الخردل ، وعن سؤالـه عن الشبـاب فيما أبلى شبابه ؟ وعن العمر فيما أفنى عمره ؟

وعن المال من أين اكتسب ؟ وعما منع ؟ وفيم أنفق ؟ وعن العلم ماذا عمل فيه ؟ وعن جميع الأعمال التي صدقوا فيها ، والتي كذبوا فيها .

فإنك ياأخي إن شغلت قلبك بذلـك ، وأسكنتـه إيـاه ، وكان فيـك شيء من صحة تركيب العقل ، فـإنـه سيكلُّ منـك لسـانـك ، ولا يعـدمـك الخوف اللازم ، مع الحزن الدائم ، والشغل المحيط بقلبك .

فإن إبليس إنما يُسوِّرُ عليك في الآثام من وسوسة نفسك ، وخراب قلبك .

وخرابه إذا كان فارغًـا من الخوف اللازم ، والحزن الـدائم ، فحينئـذ ينفث فيه بالوسوسـة لآمـال الـدنيـا [والتمني لهـا ، والطمع فيهـا ، والحرص عليهـا ، والرغبة في الإكثار منهـا ، والادخـار] (٣) والجمع لهـا مخـافـة فقرهـا ، مع لزوم طول الأمل لقلبك ، وإعراضه عن الله تعالى ، وانقطاع مواد عظمة الله منه ، وفراغه من الهيبة والحياء منه .

---

(١) سقطت (ذلك) من النسخة (ب) .

(٢) كذا بالأصول ، والصواب (منهم) .

(٣) ما بين المعكوفتين سقط من النسخة (ب) .

فإذا وجد القلب عامرًا خنس ، ونفر منه ، ولم يجد فيه مساغًا ، ولا من جوانبه مدخلاً ، لأن القلب عامر بالخوف والأحزان ، والفكر ، فهو منير مضيء يرى العبد بنور قلبه مداخل إبليس ، فيرميه بالإنكار لما يدعو إليه ، ويعتصم بما أيده الله به من نور قلبه ، فيدحره [١] عنه فيولي الخبيث إلى قلب قد فقد الخوف ، فخرب وأظلم ، فلا نور فيه .

فلا شيء أثقل على الخبيث من النور ، ولا سيما [٢] إذا وجده خنس ،ونفر منه ، فلا يقدر عليه إلا من قبل الغفلة من العبد .

أسباب نور القلب :

٢٢ ـ ونور القلب إنما هو مع تيقظه وحياته ، فإذا غفل مات وأظلم ، وطفىء نوره فيلبس على العبد ما يدخل عليه العدو ، أو يكون عليه ، فاختلس إبليس حينئذ [٣] من العبد ، واستدام القلب بالغفلة ، فتسور عليه بالآثام ، فإذا أصر على الإقامة عليها ، ورضي بها علاه الرين فأظلمه واستقر إبليس فيه ثم سلك به سبيل الآثام إلى أن يوصله ويوقعه في الكبائر ، ولا شيء أعجب إلى إبليس من ظلمة القلب وسوداه وانطفاء نوره ، وتراكب الرين عليه ولا شيء أثقل على الخبيث من النور والبياض والنقاء والصفاء ، وإنما مأواه في الظلمة ، وإلا فلا مأوى له ، ولا قرار في النور والبياض .

٢٣ ـ ولقد بلغني أن النبي ﷺ كان يكره أن يدخل البيت المظلم حتى يضاء له فيه بمصباح [٤] .

---

(١) المدحور : المهزوم ، يدحره : يهزمه .

(٢) في النسخة (ب) فإذا وجده ، وسقطت (لا سيما) .

(٣) سقطت من النسخة (ب) .

(٤) حديثٌ ضعيفٌ .

[فصل آخر] (١)

٢٤ ـ يروى عن بعض الحكماء أنه قال :

إن من أشرف المقامات وأفضلها : المراقبة لله .

ومن أحسن المراقبة : أن يكون العبد مراقبًا بالشكر للنعم (٢) ، والاعتراف بالإساءة والتعرض للعفو عن الإساءة ، فيكون قلبه لازمًا لهذا المقام في كل أعماله ، فمتى ما غفل رده إلى هذا بإذن الله .

ومما يعين على هذا : ترك الذنوب ، والتفرغ من الأشغال ، والعناية بالمراجعة .

٢٥ ـ ومن أعمال القلب التى يزكو بها ، ولا يستغني عنها :الإخلاص ، والثقة ، والشكر ، والتواضع ، والاستسلام ، والنصيحة ، والحب فى الله تعالى ، والبغض فيه .

٢٦ ـ وقال : أقل النصح : الذى يُحْرجك تركه ، ولا يَسعُكَ إلا العمل به ، فمتى قصرت عنه كنتَ مصرًا على معصية الله تعالى في ترك النصيحة لعباده ، فأقل ذلك : ألاتحب لأحدٍ من الناسِ شيئًا مما يكره الله عز وجل ، ولا تكره لهم ما أحب الله عز وجل .

فهذه الحال التى وصفنا واجبة على الخلق ، لا يسع تركها طرفة عين ، بضمير ولا بفعل جوارح .

وحال أخرى فوق هذه ، وهى فضيلة للعبد ، أن يكره لهم ما كره الله ، وأن يحب لهم ما أحب اللهتعالى .

---

(١) سقط من النسخة (ب) .

(٢) في النسخة (ب) على النعم .

٢٧ ـ قال : قال رجلٌ لابن المبارك [١] : أوصني ؟ فقال : « راقب الله » فقال الرجل : وما مراقبة الله ؟ فقال : « أن تستحي من الله » [٢] .

من آداب النفس : المناجاة والمراقبة

٢٨ ـ قال : فالمناجاة والمراقبة من حيث تضع قلبك ، وهو : أن تضعه دون العرش فتناجي من هناك [٣] .

وفي رد القلب إلى المراقبة مراجعتان :

أولاها : مراقبة النظر ، مع تذكر العلم ، قال تعالى : ﴿ **إنه عليم بذات الصدور** ﴾ [٤] وقال تعالى : ﴿ **يعلم ما في أنفسكم فاحذروه** ﴾ [٥] ثم تذكر العظمة لوجود الحلاوة .

ومقام آخر [٦] : يروى أن الله سبحانه أوحى إلى إبرهيم عليه السلام : ياإبراهيم ، أو تدري لم اتخذتك خليلاً ؟ قال : لا يارب . قال : لطول قيامك بين يدي .

٢٩ ـ قال : فقيل : إنما كان قيامه بالقلب ، وليس بالصلاة .

وهذا يوافق القرآن ، قال تعالى : ﴿ **إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار** ﴾ [٧] .

---

(١) في النسخة (ب) وجاء رجل إلى ابن المبارك ، فقال له .

(٢) وفي رواية : كن أبدًا كأنك ترى الله عز وجل ، الإحياء (٤ / ٣٨٤) .

(٣) وهذا في عالم التوهم ، وللمصنف كتاب بعنوان « التوهم » مطبوع .

(٤) سورة هود : ٥ .

(٥) سورة البقرة : ٢٣٥ .

(٦) في النسخة (ب) والقول الآخر .

(٧) سورة صٓ : ٢٣٥ .

وحديث النبي ﷺ : « اعبد الله كأنك تراه »[1] .

٣٠ ـ وقول حارثة : « كأني أنظر إلى عرش ربي بارزًا »[2] .

٣١ ـ وقال : أعلى الأعمال في الدرجات : أن تعبد الله على السرور بمولاك ، ثم على التعظيم له ، ثم الشكر ، ثم على الخوف ، وآخر الأعمال التي تكون بالصبر .

والصبر على وجوه : تصبر[3] ، وصبر جميل ، ثم تخرج إلى الخوف ، والشكر ، ثم إلى التعظيم ، والسرور .

ومن أراد الزهد فليكن الكثير مما في أيدي الناس عنده قليلاً ، وليكن القليل عنده من دنياه كثيرًا ، وليكن العظيم منهم إليه من الأذى صغيرًا ، وليكن الصغير إليهم عنده عظيمًا .

من كلمات الصالحين :ـ

٣٢ ـ وقال : إذا دعتك نفسك إلى ما تنقطع به عن[4] حظك ، فاجعل بينك وبينها حكمًا من الحياء من الله تعالى .

٣٣ ـ وقال : إن الأكياس إذا دعتهم النفوس إلى أن تقطعهم بخدائعها عن سبيل نجاتهم ، حاكموها إلى الحياء من الله تعالى ، فأذلها حكم الحياء .

---

(١) **حديث صحيح** . أخرجه البخاري (٦ / ١٤٤) ، ومسلم (٩) ، وأحمد (٢ / ١٣٢) ، وأبو داود (٤٦٩٥) ، والترمذي (٢٧٣٨) ، والنسائي (٨ / ٩٧) ، وابن ماجه (٢٣) ، وابن خزيمة (٢٢٤٤) ، وابن حبان (١٦) ، والبيهقي (١٠ / ٢٠٣) في سننه الكبرى .

(٢) **حديث ضعيف** . أخرجه أحمد (٢ / ٢٢٧) ، والطبراني (٣٣٦٧) في الكبير ، والبيهقي (٩٧١) في الزهد ، وابن حبان (١ / ١٥٠) في المجروحين ، والعقيلي (٢ / ٢٩١) في الضعفاء الكبير .

(٣) هو تكلف الصبر مع المشقة عليه .

(٤) في النسخة (ب) « عند » موضع « عن » .

٣٤ ـ وقـــال : مخرج الاغترار من حسن ظن القلب ، ومخرج حسن ظن القلب [٢] مع القيام الله على ما يكره من كذب النفس .

٣٥ ـ وقال : ذكر عند ابن المبارك عابد تعبد بلا فقه فقـال : « ليت بيني وبينه بحرًا » .

٣٦ ـ وقـال : من انقطع إلى الله لم يصبر على النـاس ، ومن انقطع إلى غير الله لم يصبرعن الناس .

٣٧ ـ وقال كُرّز [١] : من قرأ القرآن ما له ولكلام الناس .

٣٨ ـ وقال : إنما هي أيام قلائل ، فما على الإنسان لو وهب نفسه لله ؟ .

٣٩ ـ وقال : التواضع لله : ذل القلب .

٤٠ ـ وقال : أول النعم [معرفة الله ، ثم] [٢] معرفـة العلم الـذي بـه تؤدى فرائض الله ، ثم الصحة ، والغنى ، ثم العقل .

٤١ ـ وقال : ليس للعبد أن يرد على مولاه شيئًا من أحكامـه ، وعليـه أن يرضى بما ورد عليه من حكم مولاه ، فإن لم يرضى صبر [٣] ، فللعبـد حـالان : حال يوافق منه رضا على ما يحب ، وحال يوافق منه صبرًا على ما يكره .

---

(١) هو كرز بن وبرة ، كوفي الأصل ، إلا أنه سكن جُرجان ، وقد سقطت من النسخة (ب) كرز .

(٢) ما بين المعكوفتين سقط من النسخة (ب) .

(٣) في النسخة (ب) ويجب عليه أن يصبر .

فصل آخر

في صفة العدل والفضل [١]

٤٢ - بسم الله الرحمن الرحيم .

يُروى عن بعض الحكماء أنه قال : - طريق الآخرة واحد [٢] ، والناس فيه صنفان ، فصنف أهل العدل ، وصنف أهل الفضل .

والعدل عدلان : عدل ظاهر فيا بينك وبين الناس ، وعدل باطن فيا بينك وبين الله .

وطريق العدل طريق الاستقامة ، وطريق الفضل طريق طلب الزيادة . والذي على الناس لزوم العمل به . طريق الاستقامة ، وليس عليهم لزوم طريق الفضل .

والصبر والورع مع العدل ، وهما واجبان ، والزهد والرضى مع الفضل ، وليسا بواجبين ، والإنصاف مع العدل ، والإحسان مع الفضل .

٤٣ - ومن شغله العدل عن الفضل فمعذور ، ومن شغله الفضل عن العدل فمخدوع ، متبع لهوى نفسه ، وعلى الإنسان معرفة العدل ، وليس عليه معرفة الفضل إلا تبرعًا .

وهكذا كل عمل لا يجب على العبد فعله ، لا يجب عليه علمه .

ولا يكون العبد من أهل العدل إلا بثلاث خصال : بالعلم حتى يعلم ما له مما عليه ، وبالفعل ، وبالصبر .

فمفتاح العدل وأولاه بالعبد ، وأوجبه عليه : أن يعرف قدر نفسه ، فلا يكون

(١) هذا العنوان غير موجود في النسخة (ب) .

(٢) أي الطريق المستقيم ، وإلا فإن سبل الشيطان كثيرة .

لها عنده قدر فوق منزلتها ، وأن تشبه (١) سريرته علانيته .

فأحزم (٢) الناس فيه ، وأقربهم منه مأخذًا : المراجع نفسه في كل خطوة تهواها نفسه ، أو تكرهها ، فينظر في ذلك ، أن لو اطلع عليه (٣) الناس على حالته تلك (٤) فاستحيا أو كرهها ، تحول من تلك الحالة إلى حالة لا يُستحيا منها فإن الذى لا يُستحيا منه ضد الذي يستحيا منه .

فإذا تحول واستمر فلينظر ، فإن اشتهت نفسه أن يطلع الناس عليه ، تحول منه إلى ما لا تشتهيه نفسه ، فإن الذي تشتهيه ضده ، فيكون أبدًا في ضد ما تشتهيه .

٤٤ ـ وأبعد الناس من العدل : أشدهم غفلة عن هذا ، وأقلهم محاسبة لنفسه ، وأبعد الناس من العدل ، وأطولهم غفلة عن هذا : أشدهم تهاونًا به .

ولو عقلت من الذى تراقب ، ثم تقطعت أعضاؤك قطعًا ، وانشق قلبك ، أو سحتْ في الأرض ، لكنت بذلك محقوقًا .

فلما لم تعقل لم تجد مس الحياء والخوف في مراقبة الله تعالى ، ومطالعته على ضميرك ، وعلمه بما تجلبه حواسك على قلبك ، وقدرته المحيطة بك ، ثم أعرضت بعد ذلك كالمتهاون به إلى مراقبة من لا يطلع على سرك ، ولا علم له بما في ضميرك ، فقلت : لو اطلع الناس على ما في قلبي لَقَلونى ومقتونى ، فيمسَّك (٥) الحياء والخوف منهم ، حذرًا من نقصان جاهك ، وسقوط منزلتك

---

(١) في النسخة (ب) « الشبه » موضع « تشبه » .

(٢) في النسخة (ب) فأحزم موضعها وأحزم .

(٣) سقطت (عليه) من النسخة (ب) .

(٤) في النسخة (ب) هذه موضع تلك .

(٥) في النسخة (ب) فسك .

عندهم ، فكنت لهم مراقبًا ، ومنهم خائفًا ، ومن مقتهم مشفقًا ، إذا لم تخف [١] مقت الله لك ، وسقوط جاهك عنده ، ومقت الله أكبر .

ثم إذا عملت شيئًا من الطاعات التى تقرب إلى اللهِ زُلفى ، فإن هم اطلعوا عليها عقدت بقلبك حب حمدهم على ذلك ، وأحببت اتخاذ المنزلة عندهم بذلك .

وإن كان شيئًا يتقرب به إلى الله من طاعة بعقد ضمير ، أو اكتساب جوارح ، كان ذلك سرًا أحببت أن يطلعوا عليه ليحمدوك ، ويقوم به جاهك . فلم تقنع باطلاع الله عز وجل ، ولا بثوابه في عمل السر ، ولا في عمل العلانية ، [واستوجبت من الله المقت على ذلك ، وسقوط الجاه عنده ، ثم مضت أيامك على هذا] [٢] وأنت قانع بذلك ، راضٍ به ، غافل متادٍ ، معتز مخدوع ، وكانت هذه الحالة عندك أحسن أحوالك ، وأحزم أمورك .

استغن بالله وحده :

٤٥ ـ ولو استغنيت بالله وحده ، وباطلاعه [عليك] وبجزيل ثوابه لأهل طاعته ، ومحبته لهم ، وتوفيقه لهم ، وتسديده إياهم ، ومراقبته ، لأغناك ذلك عمن لا يملك لك ، ولا لنفسه ضرًا ولا نفعًا [٣] .

وقد رضي منك بذلك ، وليتك تضبطه .

فأولى الفضائل ، وأنفعها لك أن تكون نفسك عندك دون قدرها ، وأن تكون سريرتك أفضل من علانيتك ، وتنصفهم من نفسك ، ولا تطلب الإنصاف منهم ، وإنما هو التطهير ، ثم العمل ، والتطهير أولى بنا من العمل .

---

(١) في النسخة (ب) تجد موضع تخف .

(٢) ما بين المعكوفتين سقط من النسخة (ب) .

(٣) حقًا من اعتمد على الله تعالى لا ضل ، ولا افتقر ، ولا ذل .

٤٦ ـ والتطهير هو : الانتقال عن الشر إلى الأساس الذى يُبنى عليه الخير ، وقد يمكن أن يسقط البناء ويبقى الأساس ، ولا يمكن أن يسقط الأساس ، ويبقى البناء .

ومن لم يتطهر قبل العمل ، فإن الشر يمنع العبد من منفعة الخير ، فترك الشر أولى بالعبد ، ثم يطلب الخير بعد .

والنفس تجزع من التطهير ، وتفر إلى أعمال الطاعات ، لثقل التطهير[١] عليها ، وخفة العمل بالطاعات بلا طهارة .

فإذا كانت الطهارات متقدمة أمام العمل بالطاعات بعد خفته عليها لمكان الطهارة ، فالحاجة إلى معرفة الأسباب التى يطلب منها الخير ، وتوصل إلى الله ،[فالحاجة إلى ذلك][٢] شديدة .

٤٧ ـ فمن كانت له عناية بنفسه ، وخاف عليها التلف ، طلب لطائف الأسباب بدقائق الفطن ، وغائص الفهم ، حتى يصل إليها ، فإذا وصل إليها تمسك بها ، وعمل عليها ، لأن المعرفة لآفات العمل تكون قبل العمل ، ومعرفة الطريق قبل سلوكه ، فحاجة العبد إلى معرفة نفسه وهواها ، وعدوه ، ومعرفة ترك[٣] الشر أشد إن كان كيِّسًا ، وهو إلى ذلك أفقر إن كان فطنًا معنيًا بنفسه .

لأنه ليس العمل بكل الخير يلزم العبد ، والشر كله لازم للعبد تركه ، ومن ترك الشر وقع في الخير ، وليس كل من عمل بالخير كان من أهله .

---

(١) في النسخة (ب) : التطهر .

(٢) ما بين المعكوفتين سقط من النسخة (ب) .

(٣) سقطت من النسخة (ب) .

هل تعرف الشر ؟

٤٨ - ومعرفة العبد للشر فيهما علم الخير والشر ، وليس في معرفة الخير العلمان جميعًا ، لأن كل من ميز الخير من الشر فعزله واعتزاله ، فكل ما بقي بعد ذلك فهو خير كله ، وقد يمكن أن يعلم الخير ، ولا يحسن أن يميز ما فيه من الشر من الآفات التي تفسده وتبطله ، لأن الخير مشوب ممازج بالشر ، والشر شر كله .

٤٩ - وقد أضل العدو الخبيث عن الله كثيرًا من الخلق [١] بالخير ، وأضل كثيرًا منهم بالشر ، وإنما أضل منهم بالخير لقلة معرفتهم بما يمازج الخير من الشر ، فجهلوا معرفة ذلك ، وأوهمتهم أنفسهم أنهم على خير وهدى ، وطريق محبة ، وسبيل استقامة ، وهم ضالون عن الله ، عادلون عن طريق محبته ، وسبيل الاستقامة إليه .

وإنما ذلك من كثرة الآفات التي تلحق الأعمال ، وقلة علم العمال بها ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

ما أغفل الناس عن أنفسهم ، وعن أهوائهم ، وعن عدوهم ، فنعوذ بالله من الغفلة ، والسهو والنسيان الذى يردي ، ويفسد الأعمال انتاؤها [٢] .

٥٠ - والحَرِيُّ [٣] : أن تارك الشر يكون تركه له على قدر ما يعرف ، وما يخاف [٤] من ضرره ، وهو قائم بفرض تقرب إقامته إلى [٥] الله زلفى ، وطالب الخير يكون طلبه له على قدر ما يرجو ويعرف من منفعته ، ومن أن

---

(١) في النسخة (ب) الناس موضع الخلق .

(٢) سقطت من النسخة (ب) .

(٣) أي الجدير .

(٤) سقطت من النسخة (ب) .

(٥) في النسخة (ب) من .

العلم شيء ، والعمل شيء ، والمنفعة شيء ، وربما كان علم ولم يكن صاحبه به عاملاً وربما كان علم وعمل ، ولم تكن منفعة ، وربما كان علم وعمل ومنفعة ، ثم يكون بعد ذلك إبطال وإحباط ، وربما علم العبد وعمل ، وانتفع ، وسلم ، وتم .

من خصال طالب الخير : -

٥١ - فطالب الخير لا يستغني عن خمس خصال ، سوى ما يحتاج فيه إلى علم حدود الأعمال وأحكامها ، وأدائها إلى الله تعالى خالصة مخلصة ، مشوبة بالصدق كما أمر وفرض ، وسن في الأوقات التى أمر وفرض .

٥٢ - وصاحب الخير العامل به لا يستغني عن : الصدق ، والصواب ، والشكر ، والرجاء ، والخوف .

٥٣ - [في معرفة [1]] الصواب :

أما الصواب فالسنة ، والسنة ليست بكثرة الصلاة تدرك ، ولا بكثرة الصيام والصدقة ، ولا بالعقل والفهم ، ولا بغرائب الحكمة ، ولا بالبلاغ والموعظة ، ولكن بالاتباع والاستسلام لكتاب الله عز وجل ، وسنة رسوله ﷺ ، والأئمة الراشدين المهديين [2] من بعده .

وليس شيء أشد تهمة ولا أكثر ضررًا [3] على السنة من العقل ، والفهم [4]، فمتى أراد العبد أن يسلك سبيل السنة بالعقل والفهم خالفها ، وأخذ فى غير طريقها .

---

(١) سقطت من النسخة (ب) .

(٢) زيادة من النسخة (أ) .

(٣) في الأصلين حذرًا ، والصواب ما أثبته .

(٤) زيادة من (أ) .

٥٤ ـ [في معرفة [1]] الصدق : ـ

وأما الصدق ففي أربعة أشياء :

تعمل العمل ثم لا تريد على ذلك جزاءًا وشكورًا إلا من الله تعالى ، ولا تبطله بالمنّ والأذى ، ومنه صدق اللسان في الحديث ، وقد يصدق في حاله بلسانه ، وهو عاص لله تعالى في صدقه ، وهو المغتاب والنمام .

٥٥ ـ [فى معرفة [2]] الشكر : ـ

وأما الشكر فمعرفة البلوى ، فإذا عرف أن كل نعمة فهي من الله لا غيره ، وإنما هي بلوى يختبر بها عبده ، شكر أم كفر ، وكل سوء صرف عن العبد فالله تعالى صرفه ، ليشكره عبده أو يكفره ،فهذا من الشكر .

فإذا عرف العبد هذا أنه من الله ، وعدّه من نعمه عليه ، ولم يُدخل فيه أحدًا ، نفسه ولا غيرها ، فقد شكره ، فالشكر متفاوت ، والناس فيه متباينون متصاعدون ، وهذا أدناه ، وأما أعلاه فلا يبلغه أحد ، وليس له حدّ .

٥٦ ـ ومنه أيضًا وهو يشبه ما وصفنا ، إلا أنه أصل الشكر ، أن يعرف العبد : أن ما به من نعمة فمن الله بقلبه ، علم يقين ، لا يخالطه الشكوك .

فإذا عرف بقلبه ذلك ، ذكره بلسانه فحمده عليه ، ثم لم يستعن بشيءٍ من نعم المنعم على شيءٍ مما يكره المنعم .

وأعلى من ذلك : من الشكر : أن تعد كل بلاء ينزل بك [3] نعمة ، لأن

---

(١) (٢) زيادة من النسخة (أ) .

(٣) في النسخة (ب) نزل موضع ينزل .

من البلاء ما قد (١) أنزله الله بغيرك (٢)أشد وأعظم من هذا (٣) الذي أنزل بك والناس يحتاجون عند ذلك إلى الصبر ، وهو قائم بالشكر .

٥٧ ـ وصف الرجاء :ـ

وأما الرجاء فهو : أن ترجو قبول العمل (٤) ، وجزيل الثواب عليه [حتى تهيج ذلك الرجاء عنك فترحل بالانكماش وأنت ترجو القبول والثواب] (٥) وتخاف مع ذلك أن يرد عليك عملك ، أويكون قد دخلته آفة أفسدته عليك .

٥٨ ـ والراجون ثلاثة : ـ

رجل عمل حسنة وهو صادق في عملها ، مخلص فيها ، يريد الله بها ، ويطلب ثوابه ، فهو يرجو قبولها وثوابها ، ومعه الإشفاق فيها .

ورجل عمل سيئة ثم تاب منها [إلى الله] (٦) ، فهو يرجو قبول توبته وثوابها ، ويرجو العفو عنها ، والمغفرة لها ، ومعه الإشفاق ألا يعاقبه عليها . [فهذان رجاءهما رجاء صادق] (٧) .

وأما الثالث فهو : الرجل يتمادى في الذنوب ، وفيا لا يحبه لنفسه ، ولا يحب أن يلقى الله به ، ويرجو المغفرة من غير توبة ، وهو مع ذلك غير تائب منها ، ولا مقلع عنها ، وهو مع ذلك يرجو .

---

(١) زيادة من النسخة (أ) .
(٢) في النسخة (ب) بغيره .
(٣) زيادة من النسخة (أ) .
(٤) في النسخة (ب) الأعمال .
(٥) ما بين المعكوفتين سقط من (ب) .
(٦) سقط من النسخة (ب) ما بين المعكوفتين .
(٧) زيادة من النسخة (أ) .

وهـذا يقـال لـه : مغتر[١] ، متعلق بـالرجـاء الكاذب ، والطمع الكاذب ، والأماني الكاذبة . والقيام على ذلك يقطع مواد عظيمة من قلب العبد ، فيـدوم إعراضه عنه ، ويـأنس بجـانب مكر الله ، ويـأمن تعجيل عقوبتـه ، وهـذا هو المغتر المخدوع المستدرج .

وأما أمثالنا من الناس فينبغي أن يكون الخوف عنـدهم أكثر من الرجـاء ، لأن الرجاء الصادق ، إنما يكون على قدر العمل بالطاعات .

٥٩ ـ في الخوف: ـ [٢]

والخوف يكون [٣] على قـدر الـذنوب ، فلو كان الرجـاء يستقيم بلا عمـل ، لكان المحسن والمسيء في الرجـاء سـواء ، وقـد قـال الله تعـالى : ـ ﴿ **إن الـذين آمنـوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئـك يرجون رحمـة الله** [٤] ﴾ وقال : ﴿ **إن رحمة الله قريب من المحسنين** ﴾ [٥].

٦٠ ـ ومعنى الحـديث الـذى جــاء : « لـو وُزن رجــاء المؤمن وخـوفـه لاعتدلا » [٦].

ينبغي أن يكون خاصًا بين أهله ، وهو مثل الحديث الآخر : ـ

---

(١) تحرف في النسخة (ب) إلى مفتر .

(٢) زيادة من النسخة (أ) .

(٣) انظر السابق .

(٤) سورة البقرة : ٢١٨ .

(٥) سورة الأعراف : ٥٦ .

(٦) موضوعٌ . انظر : المقـاصـد الحسنـة (٩٠٩) ، أسنى المطـالب (١١٩٧) ، والأسرار المرفوعـة (٣٨٧) ، تمييز الطيب (٣٤٧) ، كشف الخفاء (٢٢٣١) ، تنزيه الشريعة (٢ / ٤٠٢) ، الموضوعات (٩٢) لابن تيمية .

• صح من كلام مطرف بن عبد الله ، أخرجه أحمد (ص / ٢٩٣) في الزهد .

« المؤمن كذي قلبين ، قلب يرجو به ، وقلب يخاف به » (١) .

فإنما هو إذا أحسن رجا ، وإذا أساء خاف ، مع التوبة ، والندم ، والإقلاع .

فأما من عرف نفسه بكثرة الإساءة ، فينبغي (٢) له أن يكون خوفه على قدر ذلك ، ورجاؤه على قدر ما يعرف من نفسه من الإحسان ، لأن الرجاء على قدر الطلب ، والخوف على قدر الهرب .

٦١ ـ هل الدنيا بلاء :

واعلم وأيقن أن الدنيا كلها : كثيرها وقليلها ، حلوها ومرّها ، أولها وآخرها ، وكل شيءٍ من أمرها بلوى من الله تعالى للعبد واختبار .

وبلواها وإن كثرت (٣) وتشعبت (٤) ، واختلفت (٥) فهو كله مجموع في خلتين : في الشكر والصبر ، فإما أن يشكر على نعمة ، أو يصبر على مصيبة .

قال الله تعالى : ﴿ **إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً** ﴾ (٦) .

وقال : ﴿ **ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلوَ بعضكم ببعض** ﴾ (٧) .

قال : ﴿ **ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فى ما آتاكم** ﴾ (٨) .

---

(١) لم أقف عليه مرفوعًا ، ويبدو أنه من كلام السلف .

(٢) زيادة من النسخة (أ) .

(٣) (٤)،(٥) : في النسخة (ب) بدون التاء .

(٦) سورة الكهف : ٧ .

(٧) سورة محمد : ٤ .

(٨) سورة الأنعام : ١٦٥ .

وقال : ﴿ **وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون** ﴾(١) .

وقال : ﴿ **خلق السموات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملاً** ﴾(٢) .

وقال : ﴿ **ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم** ﴾(٣) .

وأكثر من ذلك في كتاب الله تعالى .

وإنما كانت بلوى آدم عليه السلام أقل من آية فى كتاب الله تعالى :

﴿ **ولا تقربا هذه الشجرة** ﴾(٤) وهو كله لك بلوى .

وإن أكثر ما بُلي به العبد من أهل الدنيا : الناس ، وأفتَن الناسِ لك وأكثرهم لشغلك ، إنما هو بمعارفك منهم ، وأشغل معارفك لك ، وأكثرهم عليك فتنة ، من أنت بين ظهرانيهم ، ينظرون إليك ، وتنظر إليهم ، ويكلمونك وتكلمهم .

فإنك من لم يعرفك من أهل زمانك ولم تعرفه ، ولم تسمع به ، كأنك لم تُبْتَل بهم ، وكأنهم لم يُبْتَلَوْا بك ، وكأنهم لم يكونوا من هذه الدنيا التى أنت فيها . فارجع في صبرك إلى الله ، واستعن به ، وانقطع إليه ، واستأنس بذكره ، وأقلل من الخلطاء ما استطعت ، بل اترك القليل أيضًا تسلم ، لقول الله تعالى : ﴿ **وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيرًا** ﴾(٥) فاهرب من الفتنة .

---

(١) سورة الفرقان : ٢٠ .

(٢) سورة هود : ٧ .

(٣) سورة محمد : ٣١ .

(٤) سورة البقرة : ٣٥ .

(٥) سورة الفرقان : ٢٠ .

فرجــع صبرك إلى معـــارفـــك ، ومن أنت بين ظهرانيهم ، فنظرك إليهم فتنة ، ونظرهم إليـك فتنـة ، وكـلامـك معهم فتنـة ، وجفـاؤك لهم فتنــة ، وجفاؤهم لك فتنة لك ، وكرامتهم لك فتنة ، وكرامتك لهم فتنة لك .

٦٢ - واعتبر من ذلك بموضع تمّر فيه ، فيه معارفك ، وموضع تمّر فيـه ليس فيه أحد يعرفك .

وهكـذا شهوات المطعم والملبس ، وشهوات العين ، مـا يحـل النظر إليـه ، وما لا يحل النظر إليه ، مما كان من ذلك في غير البلدة التي أنت فيها ، فأنت منها سليم ، وفتنتها مصروفة عنك إن شاء الله تعـالى ، لأن مؤنتهـا سـاقطـة ، وهكذا أنت في جميع أعمالك (١) .

وعملـك الـذى تعمـل ، إنمـا هـو فتنـة أنت فيهـا (٢) تريـد أن تـوقي أعين الآدميين (٣) ، وأكثرهم من يعرفك بالخير ، فأعمالك لك فتنة .

إن حجبت فكنت خاليًا ليس معك من يعرفك بالخير ، وتعرفـه كان أسلم لك ، وإلا فهي فتنة (٤) فانظر كيف تسلم منها .

وإن خرجت من بلـدة أنت فيهـا معروف بـالخير ، فخرجت منهـا وهم لا يعلمون أين تريـد فهو أسلم لـك ، وإن علموا فهي (٥) فتنـة ، فـانظر كيف تسلم منها . وكذلـك الغزو ، وبلوى أهل الغزو ، ومـا ينوبهم في مغـازيهم من الفتنة ، والبلية أعظم من بليـة غيرهم ، من الـذين يعملون بـأعمـال البر ، وهم

---

(١) في النسخة (ب) أمورك موضع (أعمالك) .

(٢) في النسخة (ب) فيه .

(٣) في النسخة (ب) الناس موضع الآدميين .

(٤)،(٥) في النسخة (ب) (فهو) موضع (فهي) .

قبل أن يدخلوا في هذه الأشياء في عافية ، فإذا دخلوا فيها [١] جاءت الفتنة ، من التحاسد بعضهم لبعض ، وطمعهم فيما يرجون من السهام ، وطمعهم في الحملان [٢] ، وما يُجعلُ للناس في سبيل الغزو .

الدنيا وفتنتها : ـ

٦٣ ـ ولقد سمعت رجلاً من المذكورين من أهل الغزو ، وممن له غناء عند لقاء العدو ، واسم عظيم في المُطَّوِّعة [٣]، يقول :

الخيل قد خرجت ، ولم يُقض لي الخروج فيها ، أما السلامة فأحب أن يسلموا ، ولكني أكره أن يغنموا وليس أنا فيهم .

٦٤ ـ ولقد رأيت من يغار على بعض ما يقوى به بعض الغزاة حيث لم يُعطَ هو وأعطي غيره ، كما يغار الرجل على بعض حُرمه ، ولقد رأيت من غزا ولم يغنم ، ودَّ أنه لم يكن غزا .

٦٥ ـ ولا يؤمن ياأخي على كل من دخل في عملٍ من أعمال الدنيا والآخرة جميعًا إذا لحقتهم في عملهم الآفات التى تفسد الأعمال ، أن يدخل عليهم الشيطان فيها من العيوب والفتن مثل هذا ، وأكثر من هذا .

٦٦ ـ فليحذر الرجل على كل عملٍ يعمله من أعمال الدنيا والآخرة ، وليراقب الله فيه ،ويعامله بضمير خالص ، ويحذر اطلاع الله على فساد ضميره ، ويحذر اطلاع المخلوقين على عمله ، فإن كناس الحشوش أكرم من هذا [الغازي ، وهذا الحاج ، وهذا المعتمر] [٤] وهذا المصلي ، وهذا الصائم ، وهذا

---

(١) زيادة من النسخة (أ) .

(٢) ما يحمل الغازي عند إرادة السير من الخيل ، والأموال .

(٣) المطوعة : الذين يتطوعون بالجهاد فى سبيل الله .

(٤) ما بين المعكوفتين زيادة من النسخة (أ) .

المصـدق ، وهـذا الغـازي الـذي يكره أن ينـال المسلمـون من غنـائم الروم ، والجالس في بيته بغداد يحب أن يغنموا منهم .

فاحذر رحمك الله من قرب منك ، وقربت منه ، فإن الذين بعدوا منك وبَعُدْتَ منهم سلموا منك ، وسلمت منهم .

يود أقوام غدًا أنهم لم يكونـوا سمعوا بـآذانهم كثيرًا من أعمـالهم التي هي في رأي العين يرجى لصـاحبهـا عليهـا الثواب الجـزيـل ، والـدرجـات الرفيـعة ، ويغبطون من لم يكن عمل مثل ما عملوا كثيرًا من حسناتهم ، وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون .

٦٧ ـ يقال : إنها أعمـال عملوهـا من أعمـال [١] البر كانوا يرون أنهـا هي [٢] منجيتهم ، فكانت هى مُهْلِكَتَهُمْ ، لما مـازجهـا من الريـاء ، وحب المحمـدة من المخلوقين ، واتخاذ المنازل بالطاعات ، وإقامة الجـاه ، وحب القـدر ، والميل إلى ثواب المخلوقين .

فلما وردواعلى الله عز وجل وجـدوه قـد أحبـط أعمـالهم وهم لا يشعرون ، لأنهم كانوا قد تعجلوا ثواب أعمالهم في الدنيا [٣] من المخلوقين في الدنيا ،

فافتضحوا ، وفضيحة ما هناك بـاقيـة ، ولم يجـدوا من ثواب أعمـالهم إلا كما وجد صاحب السراب وصاحب الرماد [٤] .

فليس اسم الأعمـال يُراد ، ولا تـزيين ظـاهرهـا ، ولكن تقـوى الله ، وما يقرب إليه زلفى ، فليت بين العبد وبين كل عمل يبـاعـد من تقوى الله ،

---

(١) في النسخة (ب) : إنها أعمال من البر .

(٢) زيادة من النسخة (أ) .

(٣) سقطت من النسخة (ب) ، وأثبتناها من النسخة (أ) .

(٤) إشارة إلى عدم انتفاع كلاهما بسعيه ، فهو هباء ، لا قيمة له .

ومن الله بعدُ المشرقين .

قال الله تعالى حكاية عن إبليس العدو الخبيث : ﴿ **ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم** ﴾ [١] فلو لم يكن في الكتاب من صفات إبليس إلا هذا قد كان ينبغي للناس أن يحذروه .

جزاء عدم التصفية :

٦٨ - ولو نظرت في أكثر الناس لوجدت أن أكثرهم إنما يُؤتى من قبل البر ، وقلة العناية بتصفية العمل [٢] ، وما قد استحلت النفس من حب المحمدة من المخلوقين .

وقد يؤتى قوم كثير من قبل الآثام ، إلا أن علامة الفتنة في الناس جميعًا مختلفة وأكثر الناس إنما يعرفون من [٣] قد فُتن بالآثام ، ولا يعرفون من فُتن بالبر ، إلا القليل من الناس ، من أهل النور ، والفطن ، والفراسة ، والتوسم ، والكياسة .

وذلك : أن الذي يعمل بأعمال البر وهو يحب فتنتها أكثر من الذي يخاف فتنتها ، والذي يجهل فتنتها أكثر من الذي يعلم فتنتها .

الهوى وآثاره :ـ

ومن الناس من يعلم فتن الأعمال ومبطلاتها ، ثم يغلبه الهوى ، ومنهم من يعلم ، وتقل عنايته فيغفل .

٦٩ - واعلم أن الذي يعمل وقد علم الآفات التي تفسد الأعمال ، ومعه العناية بنفسه وعمله ، ومعه التيقظ وإزالة الغفلة ، وهو مع ذلك مشفق خائف

---

(١) سورة الأعراف : ١٧ .

(٢) في النسخة (ب) : الأعمال .

(٣) زيادة من النسخة (أ) .

من الآفات ما يكاد يسلم إلا من عصم الله تعالى ، فكيف الذي يجهل ويغفل ، ويغلبه الهوى ، ويحب دخول الآفة ؟

وقد طلبت الدنيا في زماننا خاصة بكل جهة : بالبر والإثم جميعًا افتتانًا فاحذر فتنة البر والإثم جميعًا ، لئلا ينزل بك ما نزل بغيرك في الترك والطلب .

٧٠ ـ فلتكن همتك في النظر في مرآة الفكر كالهمة بالعمل ، وأكثر من ذلك ، فإنه ليس شهوات الذنوب والسيئات ، وشهوات المطاعم ، والمشارب ، والملابس ، والبناء ، والمراكب ، والمناكح ، والذهب ، والفضة ، بأغلب على أصحابها من شهوات الجاه ، وحب الرئاسة ، وإقامة القدر ، واتخاذ المنزلة ، وقبول الأمر والنهي ، وقضاء الحوائج ، وحب العدالة عند الجيران ، والأصحاب والإخوان ، والمدحة على أصحاب البر في حسناتهم .

٧١ ـ وقد تجد الرجل يغلب شهوة الذنوب [1] ، فيترك الذنب [2] ، ويصير إلى أعمال البر ، فيضعف عند تصفيتها ، وتغلبه شهوة ما فيها ، فيعمل حسنات كثيرة بقوةٍ واقتدار عليها ، وظمأ شديد ، وسهر ،فلا يقدر على أن يغلب شهوته على تصفيتها ، فإنا لله وإنا إليه راجعون مما قد نزل بنا ، وما أعظم خطرنا ، وما أغفلنا عن عظيم الخطر ؟!!! .

٧٢ ـ ثم اعلم أني لست أزهدك في طلب أعمال البر ، لأن كل عملٍ لا تعمله اليوم لا تجد ثوابه غدًا ، ولكني أحذرك خداع الشيطان ، وهوى نفسك الأمارة بالسوء .

وفضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه ، وقد قال تعالى :ـ

---

(١) في النسخة (ب) : الذنب .

(٢) في النسخة (ب) : الذنوب .

﴿ فإذاقرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ﴾ (١) .

وقال : ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوًا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾ (٢) .

وقال : ﴿ إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم ﴾ (٣) .

وقال : ﴿ وكذلك سولت لي نفسي ﴾ (٤) .

وقال : ﴿ فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين ﴾ (٥) .

وقال : ﴿ قال بل سولت لكم أنفسكم أمرًا فصبر جميل ﴾ (٦) .

وقال : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ﴾ (٧) .

وقال : ﴿ ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ﴾ (٨) .

وقال : ﴿ ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ (٩) .

وقال : ﴿ واتبع هواه وكان أمره فرطا ﴾ (١٠) .

وقال : ﴿ وكذبوا واتبعوا أهواءهم ﴾ (١١) .

مع أشياء [في القرآن] (١٢) كثيرة في ذكر عداوة إبليس ، وذم النفس والهوى .

---

(١) سورة النحل : ٩٨ . (٢) سورة فاطر : ٦ . (٣) سورة يوسف : ٥٣ .
(٤) سورة طه : ٩٦ . (٥) سورة المائدة : ٣٣ . (٦) سورة يوسف : ٨٣ .
(٧) سورة قٓ : ١٦ . (٨) سورة صٓ : ٢٦ . (٩) سورة القصص : ٥٠ .
(١٠) سورة الكهف : ٢٨ . (١١) سورة القمر : ٣ . (١٢) زيادة من النسخة (أ) .

كيف تسلم من التعيير ؟

٧٣ ـ قلت : إني أرى من الناس أشياء يُعاب مثلها ، وأحب أن أسلم من التعيير والازدراء ، والعيب ، فلا أدرى أسلمت منه في [١] نفسي أم لا ؟

٧٤ ـ فقال : إن الإنسان عند معرفة عيب نفسه أبْله ؟ وعند معرفة عيب غيره جِهْبذ ، فلا [٢] يحتقر عيب أهل كل صناعة أهل كل عملٍ من أعمال الدنيا والآخرة ، ويحتقر عيب من هو فى مثل مرتبته ، ويستعظم ذلك من كل من رآه منه ، فإذا أتى على عيب نفسه جازه إلى عيوبهم كأنه أعمى عنه لم يره .

وهو يطلب العذر لنفسه ، ولا يطلبه لغيره ، فهو في طلب عذرها جهيبذ ، وفي طلب عذر غيرها أبله ، وهو يضمر عند ذلك لصاحبه ما يكره أن يضمر له غيره لو رأى منه مثل ذلك العيب .

٧٥ ـ فإذا رأيت عيبًا أو زلة ، أو عثرة من غيرك ، فاجعل نفسك مكانه ، ثم انظر الذي كنت تحب أن يستقبلك به لو رأى منك مثل الذي رأيت منه ، وأضمر ذلك له في نفسك ، فإنه يحب منك مثل ما كنت تحب منه .

٧٦ ـ وهكذا إذا رأيت ما يستحسن ، فأردت أن تعرف علم السلامة من الحسد له ، وبالحري أن يكون أخف الناس عليك عند الزلة من يطلب لزلتك عذرًا ومخرجًا ، فإذا لم يجد للعذر موضعًا ساءه ذلك ، وأخفى مكانه ، وعند حسنتك يُسّر ، فإن لم يُسرّ لم تسؤه .

فهكذا فكن لهم عند الزلة وعند الحسنة ، فإذا كنت كذلك فلا تحب إزالة نعمة أنعمها الله على أحدٍ في دينٍ ، ولا في دنيا ، ولا تحب أن يُقيم أحدٌ على

---

(١) زيادة من النسخة (أ) .

(٢) في الأصول : (فلا يحتقر) ، وصوابه : « فيحتقر » .

معصية الله تعالى ، ولا تحب أن يُهتك ستره عند زلته ، فإنك إذا فعلت ذلك بقلبك ، زال عن قلبك الحسد عن الدين ، والدنيا جميعًا .

٧٧ - ومتى غلبت عليك المسابقة إلى ضميرك بسوء المحضر ، فلا تُغلبن على مشاهدته بحسن المراجعة من جميع أمورك .

المؤمن وقاف :

٧٨ - واعلم أنك مسبوق إلى ضميرك بالحسد ، وسوء الظن ، والحقد ، فاجعل المراجعة شُغلاً لازمًا ، وكن وقافًا كما قال الأول : المؤمن وقاف ، وليس كحاطب ليل .

فقف وطالع زوايا ضميرك بعين حديدة النظر ، نافذة البصر ، فإذا رأيت أمرًا محمودًا فاحمد الله ، وامض ، وإذا رأيت مكروهًا أدركته بحسن المراجعة ، واستقصيت فيه ، فإن الذي دخل بيتك ولم يستأذنك سوف يختبئ فيه ، وإن كان مظلمًا فأنت لا تشعر ، إلا أن يكون معك سراج من العلم مضيء واضح ، ويكون معك من العناية بأخذه ، والإنكار لما دخل فيه ما لا صبر له عليه ، ولا طاقة له به .

ولو قد جربت لعرفت أن الذي أقول لك كما أقول .

يدخل داخل منزلك بغير إذنك ، وهو داخل لا يؤمن على (١) أن يُخْرب المدخول عليه ، فإن رأى الداخل منك توانيًا ، وتهاونًا كان هو المقيم بالمنزل ، المدبر له ، فاستولى على حُرّ بيتك ، وعلى حرمتك ، وإن رأى منك إنكارًا فيه ضَعْفٌ اختفى لك يلتمس سهوتك ، وغفلتك ، فإذا وجد فرصة خرَّب عليك ما كنت أصلحت ، وهدم ما بنيت ، فافهم إن كنت تفهم ، واقبل النصح من الناصحين إن كنت تقبل .

---

(١) زيادة من النسخة (أ) .

فلو رحلت فيا أخذت المطايا ، فبلغت حيث تبلغ من البعد ، وأنفقت في سبيل ذلك حُرَّ بيتك ،كان الذي أخذت أكثر من الذي أنفقت ، وتعبت ، فإنك تجد الخير الكثير في ميزانك يوم القيامة بصدق المراجعة ، ومبادرتها قبل أن تبرد عنك حلاوتها ، فإنها موهبة عظيمة من مواهب الله تعالى الذي (١) أكرم بها أهل خاصته ، وعظَّم النعمة عليهم فيها ، فإن عِظَمَ النعمة على قدر الحاجة .

فانظر هل راجعت نفسك وأمرك إلا وقد وجدت فيه مَرَمّة ومصلحة ، أو وجدت مقصودًا بعينه ، فلو لم تلحقه بالمراجعة لكان ذاهب إلى يوم القيامة .

٧٩ ـ واعلم أني إنما أكثر عليك وعلى نفسي من ذكر المراجعة لما قد استبان لي من الاضطرار والحاجة إلى المراجعة (٢) ، فلو قد تعلقت بشيءٍ من الخير فيها يكون ونسبتها ، وإلا فلا ، وما تركك لها إلا كالمستأنس لعدوه ، والمسلم نفسه إليه ، فهلكت وأنت لا تشعر.

وإن كنت متهاونًا بما أقول لك ، فإن أكثر حاجتك إليها في صلاة الفريضة ، ثم بعدها ، وهلم جرًا في جميع أمورك .

ولو كنت ممن يتفقد أمره لعلمت ماذا دخل عليك من الندامة والحسرة ، حيث فارقتك المراجعة في صلاة الفريضة ، فلم تدر ماذا قرأ إمامك ؟ ولم تدر أفي فرض كنت أم في نافلة ؟ في صلاة أم في غيرها ؟ وأنت في رأي العين ممن يناجي ربه .

قد أصغت بأذنيك إلى إمامك ، وتخشعَّت بوقوفك ، وفرَّغت قلبك لاستماع ما يقرأ إمامك من كلام ربك في صلاة فريضتك ، التي ليس شيء

---

(١) سقطت من النسخة (ب) .

(٢) في النسخة (ب) : (إليها) موضع (إلى المراجعة) .

أوجب عليك منها ، فرجعت منها ، وقد ظهر منك ما وصفنا ، وأنت كمن لم يشهدها ، لقلة ضبطك بالمراجعة لنفسك فيها .

ولعلَّ الذي حضرتَ منها بقلبك ، أو عقلت فلم تَسْهُ عنه ، لو قيل لك : أتحب أن يكون ذلك منك كما كنت ساهيًا ، ولك مائة ألف دينار ؟ لقلت : لا .

لك من عمرك تيقظك :

٨٠ ـ فاعتن الآن بتعاهد هذه المراجعة على قدر ما عرفت من حاجتك إليها ، فإنما لك من عمرك تيقظك ، وتيقظك : مراجعة ما فيه منفعتك وقُربتك ، والمصير إليه بالعقل ، وما سوى ذلك غفلة وسهو يؤديان إلى شهوة فيها غليان قلبك ، وفي ذلك موافقة نفسك الأمارة بالسوء ، والهوى المضل عن سبيل الله ، العادل بأهله عن طريق محبته ، وفي ذلك توثُّب العدو الخبيث الذي لا يألوك خبالاً ، الذي يجري منك مجرى الدم ، الذي يراك هو وقبيله من حيث لا تراهم .

٨١ ـ قال مالك بن دينار : « قلوب الأبرار تغلي بأعمال البر ، وقلوب الفجار تغلي بأعمال الفجور »[١] فتعاهد أمرك بالمراجعة ، فإن رأيت مكروهًا أصلحته وتحوَّلت عنه ، وإن رأيت غير ذلك حمدت الله ، وكانت عنايتك بذلك زيادة أو قربة .

(١) أثرٌ حسنٌ . أخرجه ابن أبي الدنيا في الهم والحزن ، مخطوط ، وأبو نعيم (٢ / ٣٧٠) في حلية الأولياء ، وأورده ابن الجوزي في صفة الصفوة (٣ / ٢٨٦) وعندهما زيادة : والله يرى هومكم ، فانظروا هومكم يرحمكم الله .

٨٢ ـ وإذا رأيت لك عناية بالمراجعة فاعلم أنها نعمة ، وقربة من أعظم نعم الله ، وأحق من أحسنت مصاحبته[١] نعم الله التي هي[٢] مفتاح خزائنها رحمة الله ، فالتمس الزيادة منها بالشكر عليها ، وأحق من أسأت صحبته نفسك الأمارة بالسوء ، والإساءة إليها مخالفتها ، فإن في مخالفتها موافقة مرضاة الله .

بين الشيخ وتلميذه :

٨٣ ـ قلت : فمن أهل الإرادة ؟

قال : من لم يتخطَّ عيبًا ، ولا عورة إلى نافلة .

٨٤ ـ قلت : فما حفظ اللسان ؟ .

قال : الصمت .

٨٥ ـ قلت : فما الاحتياط في التحفظ عند الكلام ؟

قال : ترك ذكر عيب من غيرك ترجو على ذكره إذا ذكرته الثواب لكيلا يخرجك ذلك إلى ذكر عيب من غيرك تخاف على ذكره العقاب ، وخذ نفسك بهذا الباب أشد الأخذ ، واحمل عليه من الناس من استرشدك ، وأراد مثل الذي تريد ، فإن العبد أكثر[٣] ما يؤتى منه[٤] من قبل التهاون باليسير ، وهو الذي يوقع في الإثم الكبير ، والتهاون باليسير هو الأساس الذي يبنى عليه الكثير ، فيكون أوله كان تحفظًا ، ثم صار انبساطًا ، ثم صار من الانبساط إلى ذكر اليسير ، ثم صار من اليسير إلى ما هو أكثر منه ، فلا تشعر حتى ترى

---

(١) في النسخة (ب) صحبته .

(٢) زيادة من النسخة (أ) .

(٣) في النسخة (ب) إنما موضع أكثر ما .

(٤) زيادة من النسخة (أ) .

نفســك حيث كنت تكره أن ترى فيــه غيرك ، ففي ترك اليسير ترك اليسير والكثير .

وأقوى الناس على ذلك وأصـدقهم هو الـذي إذا عزم أمضى عزمـه ولم يلْوِ ، وأضعف النـاس في ذلـك أضعفهم عزمًا ، وهـو الـذي يعـزم ثم يحـل عـزمـه ، ولا يكاد يمضي عزمًا .

فهذا الذي يتلاعب به الشيطـان (١) ، والهوى ، والنفس ، ليس لـه عنـدهم قدر ، لكثرة معرفتهم بتناقص عزمـه ، وقلـة استعمالـه (٢) لهـا ، وأولو العزم من الناس أفاضل الخلق من كل طبقة .

٨٦ ـ قلت : فمن أرجا الناس لقبول التوبة منهم ؟

قال : أشدهم خوفًا ، وأصدقهم نـدامـة على مـا كان منـه ، ومـا سلف (٣) ، ومـا شـاهـده الله ؟ واطلع عليـه من زللـه ، وخطلـه ، وطول غفلتـه ، ودوام إعراضه ، وأحنهم تحفظًا فيما يستقبل ، وإن استووا في ذلك فأشدهم اجتهادًا في العمل ، لأن علامة صدق الندم على ما سلف (٤) من الـذنوب : شـدة التحفـظ فيما بقي من العمر ، ومـواثبـة الطـاعـة بـالجـد والاجتهـاد ، واستقـلال كثير الطاعة ، واستكثار قليل النعم (٥) ، مع رقـة القلب ، وصفـائـه ، وطهـارتـه ، ودوام الحزن فيـه ، وكثرة البكاء ، والتفويض إلى الله تعـالى في جميع الأمـور ، والتبري إليه من الحول والقوة ، ثم الصبر بعد ذلـك على أحكام الله عز وجل ، والرضا عنه في جميعها ، والتسليم لأموره كلها في حسن الظن (٦) .

---

(١) في النسخة (أ) العدو .
(٢) زيادة من النسخة (أ) سقطت من (ب) .
(٣) انظر السابق .
(٤) في النسخة (ب) على ما مضى .
(٥) في النسخة (ب) النعمة .
(٦) سقط هذا العنوان من النسخة (ب) .

٨٧ ـ وقال لي : قد علمت من أين غلطت : أحسنت الظن بنفسك ، فتاقت إلى درجات المحسنين بخلاف سيرتهم ، من غير إنكار منك عليها لمساوىء أعمالها ، ولا دفع لما ادّعته من أعمال الصادقين ، وأسأت الظن بغيرك فأنزلتهم في درجة المسيئين ، إغفالاً منك لشأنك ، وتفرغت للنظر في عيوب غيرك .

فلما كان ذلك منك كذلك ، عوقبت بأن غارت عيون الرأفة والرحمة من قلبك ، وانفجرت إليه أنهار الغلظة والقسوة ، فأحببت أن تنظر إلى الناس بالازدراء عليهم والاحتقار لهم ، وقلة الرحمة ، وأردت أن ينظروا إليك بالتعظيم ، والمهابة ، والرحمة .

فمن وافقك منهم على ذلك نال منك قربًا ومحبة ، ونلت أنت من الله تعالى بعدًا وسخطًا ، ومن خالفك فيه ازداد منك بُعدًا وبغضًا ، وازددت أنت من الله بُعدًا وسخطًا .

وأطلت في ذلك كله أملك ، فطاب لك المسير في طريق التسويف ، ومدارج الحَيْرات ، فاشتدت رغبة نفسك ، واستمكن الحرص من قلبك ، فعظمت لذلك في الدنيا رغبتك ، وشحَّت ، فجمحت إلى شهواتها ، واحتوشتْ قلبك لذاتها ، فحال ذلك بينك وبين أن تجد حلاوة سلوك طريق الآخرة .

فقلبك حيران على سبيل حيرة ، قد اشتبهت عليك سبل النجاة ، [وعلى قدر ما ورد على قلبك من ذلك رق منك جلباب الحياء] [1] ، وشقق حجاب الذنوب ، فأنست لقربها ، وطاب لك شم ريحها ، فوصلت بذلك إلى محض المعصية ، فادعيت ما ليس لك ، وتناولت ما يبعد مرامه من مثلك .

---

(١) ما بين المعكوفتين سقط من النسخة (ب) .

ثم أخرجك ذلك إلى أن تكلمت لغير الله ، ونظرت إلى ما ليس لك ، وعملت لغير الله ، فكنت مخدوعًا مسبوعًا عند حسن ظنك بنفسك وأنت لا تشعر ، ومستدرجًا من حيث لا تعلم ، فكان ميراث عملك : الخبث ، والجريرة ، والغش ، والخديعة ، والخيانة ، والمداهنة ، والمكروة ، وترك النصيحة ، وأنت في ذلك كله مظهر لمباينة ذلك .

لو لم تصلح سريرتك ؟

٨٨ ـ فمن كانت تلك سريرته فلا ينكرن [١] أن يبدو له من الله ما لم يكن يحتسب .

فلو كان لك يا مسكين أدنى تخوف ، لبكيت على نفسك بكاء الثكلى المحبة لمن ثكلت ، ونُحت عليها نياحة الموتي حين غشيك شؤم الذنوب .

ولو بكى عليك أهل السموات وأهل الأرض لكنت مستوجبًا لذلك ، لعظم [٢] مصيبتك .

ولو عزاك عليها جميع الخلق تعزية المحروب المسلوب لكنت مستحقًا لذلك ، لأنك قد خربت [٣] دينك ، وسُلبت معرفتك بشؤم الذنوب ، فركبك ذل المعصية ، وأثبتَ اسمك فى ديوان العاصين ، واستوحش منك أهل التقوى إلا من كان فى مثالك .

فأخذ الذين أرادوا الله وحده فى طريق المحبة له ، وسلكوا سبيل النجاة إليه ، وأخذت فى غير طريقهم ، فملت حين خالفت سبيلهم [٤] إلى غيره ،

---

(١) في النسخة (ب) فلا ينكر .
(٢) في النسخة (أ) عظيم .
(٣) في النسخة (أ) حرمت .
(٤) في النسخة (ب) طريقهم .

فبقيت متحيرًا ، وعن وجع الإصابة متبلدًا .

وبمثل هذه الأسباب التي قد اشتملت عليها طريقتك يستدل على خسران القيامة ، وبالله نعوذ ، وإياه نسأل عفوًا وتقريبًا منه مع المحسنين ، إنه لطيف خبير .

فصل [١] في مخاوف العباد :

٨٩ ـ قلت : أما تخاف أن تكون هذه المعرفة حجة عليك ، والعناية [٢] ، والاشتغال بوصفها خدعة من الشيطان ، ومشغلة [٣] ، وصدًا عن منفعتها [٤] ؟

فقال : واسوأتاه من غفلة واضعها عن محاسنها ، ومَنْ رام رمى فلم يخطيء حيث أراد ، فأما الأمن فحرم ، وأما الخوف ففرض على من يؤمن بالله واليوم ، وبالوعد والوعيد .

وقد علمت أن القصد إلى نفس المحبة ، والعناية بها أبلغ لصاحبها ، وأكثر له في المنفعة منه بوصف المحبة ، لأن طلب نفس المحبة غير طلب وصف المنفعة ، وإنما اشتغلت بالوصف اضطرارًا ، حيث رأيت نفسي خارجًا منها جميعًا ، فاعتنيت بمعرفة وصفها ، والهداية إليها رجاء أن يوصلني [٥] ذلك إلى نفس المنفعة ، والهداية إليها ، والله المستعان على ما نقول وما نضمر ، وإن العبد بين تسع مخاوف :ـ

فأولاها : أن يخاف ، ويدعو الله ، ويتضرع إليه ألا يَكِلْهُ إلى حسناته التي يتعزز بها في عباد الله ظلمًا وعدوانًا .

---

(١) سقط من النسخة (ب) .

(٢) انظر السابق .

(٣) في النسخة (ب) طويلة .

(٤) في النسخة (ب) نفعها .

(٥) سقط من النسخة (ب) وأثبته من (أ) .

والثانية : أن يخاف من كفران نعم الله [١] ، التي قد غلب عليه البطر بها ، فأشغله عن الشكر عليها .

والثالثة : خوف الاستدراج بالنعم وتواترها .

والرابعة : خوف أن يبدو له غدًا من الله ما لم يكن يحتسب ، في طاعاته التي يرجو ثوابها ، ولم يعُدّها من ذنوبه .

والخامسة : الذنوب التي عملها ، واستيقن بها فيما بينه وبين الله تعالى .

والسادسة : تبعات الناس قِبَله .

والسابعة : أنه لا يدري ما يحدث له في بقية عمره .

والثامنة : أن يخاف تعجيل العقوبة في الدنيا ، والنكال فيها قبل الفَوت .

والتاسعة : الخوف من علم الله تعالى فيه ، وفي أي الدارين أُثبت اسمه في أم الكتاب .

فاحذر الذنوب فإن شؤمها قريب ، وظلمتها شديدة ، واحذر الحسنات التي تباعد بينك وبين طريق الصالحين ، فما أقرب القارىء المتعبد بغير معرفة إلى [٢] أن يتكبر على عباد الله عز وجل ، ويُمنُّ على الله سبحانه وتعالى بالحسنات التي لو وكله إليها كان فيها هلاكه ، وما أقربه من أن يطلب الناس بما أراده الله منهم من الطاعة له عز وجل ، والإجلال والإعظام ، والقدر العظيم .

٩٠ ـ ولا يؤمن على القارىء غير الفقيه أن يسىء إليهم ، ويطلب منهم الإقرار بالإحسان ، ويعطيهم من نفسه ما أراد الله منه .

---

(١) في النسخة (ب) النعم .

(٢) سقط من النسخة (ب) ، وهو في النسخة (أ) .

إن الله تعالى أراد منه : أن يتزين له ، ويتعبد له ، ويخلص له العمل وحده ، فأعطى هو للمخلوقين ذلك من نفسه .

في الذم والمدح [1]

٩١ ـ قلت : الرجل يقول : إنه ممن لا يريد بعمله جزاءً ولا شكورًا ، وهو معروف بأعمال البر :بالصلاة ، والصدقة ، والصيام ، وغير ذلك ، وقد مدحه قومٌ فسرَّه ذلك جدًا ، وفرح به ، وذمه آخرون فساءه ذلك جدًا وكرهه ، حتى عرف من نفسه التغيّر لكلا الفريقين جميعًا ، كيف يعرف هذا نيته وحب المحمدة ، وكراهية المذمة ثابت في قلبه ؟

والمرائي يحب الثناء ، ويكره المذمة .

قال : إنه لا يجب على الناس أن يكرهوا الثناء الحسن والمحمدة ، ولا يجب عليهم حب المذمة ، عملوا الحسنات أو لم يعملوا ، إذا لم يكن ذلك منهم من معنى فاسد ، لأن المرائي وإن كان يريد العمل على أن يحب المحمدة ، ويكره المذمة ، فإنه صادق لا يجب عليه أن يكره الثناء ويحب المذمة .

وإن أكثر الصادقين قد مدحوا ، وأثني عليهم ، ولم يضرهم ذلك شيئًا .

وإنما الفرق بينهما إن المرائي إرادته وأمله في عمله جاه الدنيا ، والمنزلة عند أهلها ، فأفسد عمله بنيته وإرادته ، نال الذي أراد من ذلك أو لم ينله ، أو حمدوه على عمله أو لم يحمدوه ، أو ذموه أو لم يذموه .

٩٢ ـ وغير المرائي إنما كره المذمة ، [والثناء السيء] [2] لحال جاء فيهما من الكراهية ، مثل السقوط من أعين الناس ، والبغضة ، والمقت من المؤمنين ، وأشباه ذلك ، والثناء الحسن ، والقول الجميل أحبه لموضع ستر الله ،

---

(١) سقط من النسخة (ب) .

(٢) زيادة في النسخة (أ) فقط .

ومـا جـاء في الرجـاء من الثنـاء الحسن ، والقول الجميل ، والمحبـة من النـاس ، ومودتهم لـه ، وكان اعتقـاد نيتـه وعزمـه في أول أمره وآخره ألا يريـد بـذلـك إلا وجه الله وحده ، والدار الآخرة ، حمدوه أو ذموه ، أحبوه أو أبغضوه .

وربما كان اعتقاد الرجل عند عمله : إرادتـه الآخرة ثم ينتقل قليلاً ، قليلاً إلى إرادة الدنيا ،

وذلك أنه شيءٌ خفيٌ ، والعامة تقل معرفتهم به ، وعنايتهم بذلك ، وتكثر غفلتهم ، وسهوتهم عنه ، وقد كان ينبغي أن تكون عنـايـة المؤمن بـذلـك أكثر من عنايته بما يعمل من الأعمال الظـاهرة ، لأن أعمـال الجوارح لا يمكنـه أن يقلبها ، ولا يغيرها عن حـالاتهـا (١) ، و النيـة لا يـأمن عليهـا الفسـاد ، وإن كانت صادقة صحيحة أن تتحول من أحسن ما كانت عليـه إلى أقبح مـا تكون عليه ، وأفسدها لعمل صاحبها ،وقد قال النبي ﷺ :-

«الأعمال بالنية ، وإنما لا مرىء ما نوى» (٢) .

فالأعمال بالنية تكون ، وعن النية تكون ، فالعبد أحوج إلى معرفة النية ، ومعرفة فسادها ، إذاكانت الأعمال إنمـا تصح بتصحيحهـا ، وتفسـد بفسـادهـا ، وإن جميع ما نـذكره إنمـا هو وصف للعمل ، وللحقيقـة والصحـة علامـات غير هـذا ، وإن الأعمـال كلهـا عملان : عمل تمكن فيـه النيـة ، وعمل لا تمكن فيـه النية ، والعمل لغير طاعـة الله ، أو على غير سنـة رسول الله ﷺ لا تمكن فيـه النية ، والذي تمكن فيه النية عمل في طاعة الله على السبيل والسنـة ، والنـاس فيه صنفان : صنف يعرفون النية ، وصنف لا يعرفون النية .

والـذين يعرفـونهـا صنفـان : صنف ضعيف يقنعهم النظر فيهـا بـالجـزاف

---

(١) في النسخة (ب) حالها .

(٢) سبق تخريجه برقم (٧) .

والأماني ، وصنف لا يأتمنون أنفسهم عليها ، ولا يعنون إلابما يصح لهم في ذلك عند الميزان ، وهو المحنة ، محنة نفسك .

٩٣ - ومن الناس من يرى أنه يكره المحمدة والثناء إشفاقًا على عمله ، وخوفًا من فتنته ، فلا يعبأ بما يخيل إليه من ذلك ويظن ، لأن كثرة ما يظن الناس من ذلك ليس كما يظنون ، حتى ينظروا إلى تحقيق صدقه عند البيان .

فليراجع نفسه إذا أُثني عليه أو مُدح ، أو ذموه أو نسبوه إلى ما يكره ، فإن كان ما أعجبه من الثناء والمدحة إنما أعجبه لمعنى ما قلنا من الستر ، والرجاء في الثناء الحسن ، والقول الجميل لمثل قوله تعالى : ﴿ **وألقيت عليك محبة مني** ﴾ (١) ﴿ **وآتيناه أجره في الدنيا** ﴾ (٢) قال : الثناء . وقال : ﴿ **وآتيناه في الدنيا حسنة** ﴾ (٣) قال : الثناء الحسن . وقوله : ﴿ **واجعل لي لسان صدق في الآخرين** ﴾ (٤) قال : الثناء الحسن .

٩٤ - وقال النبي ﷺ في الرجل يعمل العمل يريد به وجه الله فيحمده الناس ، ويثنون عليه به ، فقال : « تلك عاجل بشرى المؤمن » (٥) .

٩٥ - وقوله ﷺ في العبد إذا أحبه الله : « لم يخرجه من الدنيا حتى يملأ مسامعه مما يحب » (٦) .

---

(١) سورة طه : ٣٩ .

(٢) سورة العنكبوت : ٢٧ .

(٣) سورة النحل : ١٢٢ .

(٤) سورة الشعراء : ٨٤ .

(٥) **حديث صحيح** . أخرجه مسلم (٢٦٤٢) ، وأحمد (٥ / ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٦٨) ، وابن أبي شيبة (١١ / ٥٣) في مصنفه ، وابن ماجه (٤٢٢٥) ، والبغوي (٤١٤٠) ، (٤١٤١) في شرح السنة .

(٦) **حديث صحيح** . أخرجه ابن ماجه (٤٢٢٤) ، والطبراني (١٢٧٨٧) في الكبير ، وأبو نعيم (٣ / ٨٠) في الحلية .

٩٦ ـ وقوله : « أنتم شهداء الله في الأرض »[١] وأشباه ذلك في الكتاب والسنة .

فإن كان سروره بما ذكر به من الخير شكرًا لستر الله عليه ، وحمدًا منه لله إذ جعله الله عز وجل ممن يذكر بعلامة الخير ، فليس ذلك بسرور فاسد ، ولكنه شكر وطلب مزيد ، وعلامة سلامة نيته وعمله[٢] في ذلك : أن يزداد لله تواضعًا ، ولآلائه شكرًا ، وفي طاعته اجتهادًا ، ومع ذلك ينبغي أن يرد نفسه إلى طريق المخافة من الاستدراج ، ويكون ما خفي من عمله أحب إليه مما ظهر ، مخافة ما يلحق أهل الصلاح من الفتنة فيما يستمعون من المدحة والثناء ، ولما جاء من النهي والكراهية عن[٣] التزكية والمدحة أن يسمع الرجل صاحبه ، وذلك مثل قوله ﷺ : ـ

« من مدح أخاه في وجهه فكأنما أمرَّ على حلقه موسى رميضًا »[٤] .

٩٧ ـ ومثل قوله عليه السلام « لو سمعك ما أفلح »[٥] .

٩٨ ـ ومثل قوله ﷺ : « عقرت الرجل عقرك الله »[٦] وهذا نحوه كثير .

---

(١) **حديث صحيح** . أخرجه البخاري (٢ / ١٢١) ، ومسلم (٩٤٩) ، وأحمد (٣ / ١٨٦ ، ١٩٧) ، والترمذي (١٠٥٨) ، والنسائي (٤ / ٤٩ ، ٥٠) ، وابن ماجه (١٤٩١) .

(٢) سقطت كلمة (وعمله) من النسخة (ب) .

(٣) انظر السابق .

(٤) **حديث ضعيف** . أخرجه ابن المبارك (١٤١٢) في الزهد مرسلاً . الرميض : الحديد الماضي .

(٥) **لم أقف عليه** : وعزاه العراقي في المغني (٣ / ١٥٦) لابن أبي الدنيا (٥٩٣) في الصمت ، قلت : وليس عنده هذه الجزئية من الحديث ، وانظر الإتحاف (٨ / ٢٥٦) .

(٦) **لا أصل له** . انظر المغني للعراقي (٣ / ١٥٧) ، تذكرة الموضوعات (١٦٤) ، الفوائد المجموعة (٢٣٤) . لكن أورده البغوي (١٣ / ١٥١) في شرح السنة ، ونسبه لعمر بن الخطاب رضي الله عنه .

٩٩ ـ فإذا كان مذهبه ونيته شكر الله على ستره ، وحمد الله على نعمته ، ويكون ما سبق من السرور إلى قلبه في ثناء إذا سمعته رجاء القدوة به ، إذاكان ممن يصلح أن يقتدى به ، لقول الله عز وجل : ﴿ **واجعلنا للمتقين إمامًا** ﴾[1] يقول : أئمة في الخير يقتدى بنا .

فإن كان كذلك رجوت ألايضره ذلك ، ولا يفسد عليه عمله .

١٠٠ ـ وقد ذكر عن مطرف أنه قال : « ما سمعت ثناء أو مدحة إلا تصاغرت إلى نفسي » .

١٠١ ـ وقال زياد بن أبي مسلم : « ليس أحد مسمع ثناء أو مدحة إلا تراءى له شيطان ، ولكن المؤمن يراجع » فقال ابن المبارك : صدق كلاهما .

١٠٢ ـ أما ما ذكر زياد فذلك قلب العوام ، وأما ما ذكر مطرف فذلك قلب الخواص ، وإن كان مذهبه ونيته إذا سمع ذلك وسُرّ به لطلب الرفعة والمنزلة عند الناس فما أسوأ حاله في إحباط عمله .

وأما المرائي فهو الذي يكون مذهبه ونيته في أول عمله وآخره ، طلب الثناء والمحمدة ، والرفعة ، والتكرمة عند الناس ، وإحراز المنافع به ، فذلك الذي جاءه الويل والثبور في الدنيا والآخرة .

فإن كان يعرف معرفة حق أن ما أعجبه لهذا المعنى ، ولم يعجبه ذلك لما نال من الجاه عندهم فلا جناح عليه ، وعلامته : أن يزداد تواضعًا ، ويُحدث خوفًا من الاستدراج ، وما يخفى من عمله فهو أحب إليه [2] مما يظهره ، لأنه طمع في طريقة الصالحين ، فعلى قدرذلك ينبغي أن يرغب في أعمالهم ، وما نالوا به اسم الصلاح ، وصاروا من أهله ، مع ما يلزمه من الخوف ، ومن

---

(١) سورة الفرقان : ٧٤ .

(٢) زيادة من النسخة (أ) ، وليست في (ب) .

الفتنة ، مما يلزم أهل الثناء والمحمدة ، إذا أُثني عليهم أو مدحوا ، مثل قوله عليه السلام : « عقرت الرجل عقرك الله » ومثل قوله : « لو سمعك ما أفلح » ، وقوله : « قطعت عنق أخيك »(١) وقوله : « إياكم والمدح فإنه الذبح »(٢) وأشار بيده إلى حلقه .

١٠٤ ـ وقوله : « لو مشى رجل إلى رجل بسكين مرهف(٤) كان خيرًا له من أن يثني عليه في وجهه(٥) » ومثل ذلك كثير .

١٠٥ ـ وصاحب المدحة أخوف عليه أكثر من الرجاء له ، لأنَّ الخوف لا يضره ، والرجاء لا تؤمن فتنته .

وعلامة أصحاب الجاه في الدنيا ، وأصحاب الرياء المحبين لذلك : أنهم إذا سمعوا الثناء والمحمدة ، أحبوا ذلك وازدادوا عزة وإعجابًا بأنفسهم ، وغفلة عن الاستدراج ، وتمادوا ، وتمنوا ، وطمعوا أن ما ظهر عليهم من أعمالهم كان أحب إليهم ما خفي ، ولم يخافوا فتنته ، ولا من آفته .

وكذلك إذا كره المذمة إن كان إنما كرهها لأنه أحب أن يكون مكانها مدحة وثناء ، لينال بذلك الجاه ، والقدر ، والمنزلة ، والرفعة عند الناس ، فهي كراهية سقيمة مذمومة ، وصاحبها مغرور مخدوع .

وإن كان إنما هي حب منه لستر الله عليه ، وكراهية هتك الستر عنه ،

---

(١) **حديث صحيح** . أخرجه البخاري (٣ / ٢٣١) ، ومسلم (٢٠٠) ، وأبو داود (٤٧٨٤) ، وأحمد (٥ / ٤١) ، وابن ماجه (٣٧٤٤) .

(٢) **حديث صحيح** . أخرجه ابن ماجه (٣٧٤٣) ، وأحمد (٤ / ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٩) ، وابن أبي شيبة (٩ / ٦)

(٣) **حديث صحيح** . أخرجه مسلم (٣٠٠٢) ، وأحمد (٦ / ٥) وابن أبي شيبة (٩ / ٥) ، (٩ / ٨) .

(٤) أي حاد ، سريع الإجهاز .

(٥) **لا أصل له** . انظر : المغني (٣ / ١٥٧) للعراقي ، التذكرة (١٦٤) ، الفوائد (٢٣٥) للشوكاني .

لأ نه لم يمقته الناس حتى جاءه المقت من عند الله قبل مقت الناس ، فإن كانت الكراهية إنما هي من هذه الجهة ، فإن هذا يكرهه الصادق وغير الصادق ، فلا يلام عليه .

وعلامته : التضرع ، والاستكانة ، والمراجعة ، والنظر في التخلص إلى طريق محبة الله تعالى ، وسبيل الاستقامة ، ومحجة الإيمان والجد فيه .

١٠٦ ـ وأبين من ذلك : إن كل من زعم أنه يريد بعمله وجه الله ، ولا يريد من أحدٍ على عملٍ يعمله من الأعمال الصالحة جزاء ولا شكورًا ، ثم عرفه الناس بعمله ، وذكره به ، وصار معروفًا عندهم ، ونال منهم الرفعة ، فإن كان يعرف من نفسه أنه إذا عرض عليها أن يتحول اسمه ، ومازال بعمله من الناس من الثناء والمحمدة إلى غيره ، ويبقى هو [عند الناس][1] كمن لا يعرف له عمل من أعمال البر ، ذكرٌ ولا غيره ، فكان هذا أحب إليه ، فأمره مرجوّ ، وإن كره أن يتحول ذكره الذي كان عليه إلى غيره ويبقى هو عند الناس كمن لا يعرف له من أعمال البر ، فداعوه حينئذ باطلة .

لأ ن الذي يقوله : إنه يريده بعمله ولا يريد غيره ، فإذا تحول ذكره إلى غيره ، لم يحول الذي عمل له العمل ثوابه إلى غيره ، ولم ينقصه من ثوابه شيئًا ، ولعله أن يكون أكثر له عنده ، وأقرب مثوى .

والذي كان يزعم أنه لا يريدهم به ، كره أن يزول عنه الاسم الذي ثبت له عندهم به المنزلة ، وكره أن يبقى عند من زعم أنه لا يريدهم بلا ذكر عمل يعرفونه به .

ومثل هذا ينظر إن كانت له خصلة عند الناس من خصال البر فنسبوه إليها ، ويظنون أنه صاحبها ، غلطًا منهم بها وجهالة ، فكره أن يعرفوا

---

(١) زيادة من النسخة (أ) ليست في (ب) .

ذلك ، أو يطلعوا عليه ، أنه ليس ممن يعمل بتلك الخصلة ، أوْ لَه عمل من البر ، وعند الناس أن ما يعمله (١) هو من البر أكثر ، فيكره أن يطلع الناس عليه ، فلا يعبأ بمحبة نفسه عند الذي يعمل من أعمال البر ، فإنه ممن يحب أن يحمد بما لم (٢) يفعل ، ولا يمكن أن يكون واحد يحب أن يحمد بما لم يفعل ، ولا يحب أن يحمد بما قد فعل ، حتى يحبهما جميعًا .

كذلك إن صحب رجلاً معروفًا بالصلاح والعبادة عند الناس ، أوْ له سبب قد نال بذلك(٣) ذكرًا من غيره ، فكره أن يسقط ذلك عند الناس فلا يعبأ بمحبة نفسه عندما يعمل من أعمال البر ، فإنه يمكن أن يحب الذكر بعمل غيره ، ولا يحب أن يذكر بعمل نفسه الذي يعمله حتى يحبهما جميعًا .

فإن وجد نفسه في هذه المواضع صادقة على ما يجب عليها فيه الصدق ، فأرجو أن يكون من أهل الصدق إن شاء الله تعالى .

اليقين :

١٠٧ ـ وأما اليقين فعند العمل ، والصدق فيه : مشاهدة الثواب والعقاب ، فليس يكون (٤) بكثرة النفقة ، ولا بكثرة الكلام ، ولا يحتاج فيه إلى تحريك الشفتين ، ولكن بالإيمان وبالعقل ، وبالمعرفة ، وحسن التدبير في ظاهر أمر العبد وباطنه .

فتعرف الصدق ، وتعرف ضده من الكذب ، وتعرف الخير ، وتعرف ضده من الشر ، فتعمل في إثبات الصدق ، ونفي ضده ، وتعلم الأصل من الفرع ، فيكون الشغل في إثبات الصدق من وجه الأصل ، وانتقاء ضده من وجه

---

(١) انظر السابق .

(٢) سقطت من النسخة (ب) .

(٣) في النسخة (ب) به موضع (بذلك) .

(٤) زيادة من النسخة (أ) ، ليست في النسخة (ب) .

الأصل ، فإن الأصل يأتي على الفروع ، ومادام العبد يشتغل بالفرع عن الأصل ، فليس لشغله فناء ، ما دام الأصل ثابتًا ، كلما ذهب فرع أخلف فرعًا آخر بدله .

صفة العز [١] :

١٠٨ - وحب العز أصل ، ومنه مخرج حب الرئاسة والجاه عند الناس ، ومنه : الكبر ، والفخر ، ومنه : الغضب ، والحسد ، ومنه : الحقد ، والحمية ، والعصبية ، والنفس عاشقة له ، وهو قرة عينها ، وهو أحب من أم واحدٍ لواحدها .

١٠٩ - وبلغني : أنه آخر ما يبقى في قلوب تاركي الدنيا للآخرة ، وذلك لصعوبة تمكّنه من النفس .

فالعمل الصالح من غير المزيد المستحكم من أهل القراءة سلاحه الذي يقوى به سلطانه هو العز في النفس والفخر بالعمل ، والإزراء [٢] على الناس. وقد رأينا من يعمل أعمال الصالحين من الصلاة ، والصيام ، والصدقة ، والحج ، والجهاد ، وعزه في نفسه زائد ، نعم وقد رأينا من يتواضع لطمع زيادة في العز ، ولا أعلم أني رأيت أحدًا من أهل النسك خاليًا منه ، يعني من العز .

فإن كان يجد بقاء حلاوة طعمه [معه على قدر ما يمكنه ، ولا] [٣] يفلح معه عابدًا كان أو زاهدًا .

وكيف يكون زاهدًا ، والزهد لا يأوي معه في مأوى واحد ؟ .

---

(١) سقطت من النسخة (ب) .

(٢) أي التحقير .

(٣) سقط من النسخة (ب) ، وأثبته من (أ) .

فمن عالج نفي العز من نفسه ، ووفقه الله لذلك ، فنال نفيه ، سهل عليه المسير في طريق محبة الله عز وجل ، ومحبة الإيمان ، وسبيل الاستقامة ، ومدارج الصالحين ، وهان عليه معالجة الصدق في عمله ، واطمأنت نفسه إلى التذلل والتواضع ، وطاب له طريق العدل ، لأنه لا يقدر أن يحب للناس ما يحب لنفسه وفيه العز ، ولا يقدر على كظم الغيظ وفيه العز ، ولا يقدر على قبول الحق وفيه العز ، ولا يقدر على التواضع الذي هو شرف التقوى وحليتها وفيه العز ، ولا يقدر أن يدوم على الصدق وفيه العز ، ولا يقدر على ترك الحسد وفيه العز ، ولا يقدر على ترك الحقد وفيه العز ، [ولا يقدر على ترك الغضب وفيه العز ، ولا يقدر على ترك الحمية وفيه العز] (١) ، ولا يقدر على ترك العصبية وفيه العز ، ولا يقدر على سلامة القلب وفيه العز ، ولا يقدر على النصح وفيه العز ، ولا يسلم من الازراء على الناس وفيه العز .

فما أكثر ضرره ، وأعظم فساده ، وأظهر أمره ، وأقل رشده ، وأبْيَنَ غيّه عند الخاص ، والعام !! .

وما أغفل الناس عنه ، وأقل معرفتهم به ، وأشد متابعتهم له !! .

فالهوى حكمه ، والكبر أخوه وعضده ، والجور سيرته ، والغضب سلطانه ، والرياء عون من أعوانه ، له يكسب ، وإليه يؤدي ، والعجب أضعف عونًا له ، والحسد أمير جنوده ، والغلُّ صاحب مشورته .

١١٠ - وروي عن النبي أنه قال : « الكبر والحسد يأكلان الحسنات كما تأكل النار الحطب » (٢) وقال بعضهم : الغل والحسد .

والعز في الخلق عام ، في العبيد والإماء ، والفقراء والأغنياء ، والضعفاء

---

(١) ما بين المعكوفتين سقط من النسخة (ب) .

(٢) **حديث ضعيف** . أخرجه ابن ماجه (٤٢١٠) وخرّجته في التوبيخ لأبي الشيخ مطولاً .

والأقوياء ، والقراء ، والعلماء ، وكل واحد منهم يظهر منه على قدر ما يمكنه إظهاره ، ومن لم يمكنه الإظهار عامل الناس به سرًا في نفسه ، لأنه ما دام في الإنسان لا يترك حظه منه سرًا ، ولا علانية .

١١١ ـ أما تراه وكيف يتغيظ في نفسه على غيره ، وكيف يحسده ، ويدور حوله يطلب عوراته ، وكيف يحكم فيه بحكم الهوى ؟

ولو ملك من ذلك في الظاهر ما ملك في الباطن لأظهر مثل الذي أضمر من ذلك في الباطن . .

وأقبح أمره وأفسده له ، وأشده فضيحة إذا كان في القاريء ، لأنه لا يكاد يتعزز على غيره بسببٍ من الأسباب إلا بأسباب الدين ، وإلا رأيت فيه أثر ذلك ، فسبحان الله !! ماذا يلقي القراء خاصة من العز ومن أعوانه ؟! .

يدلك على ذلك سرعة حقدهم ، وكثرة غضبهم لأنفسهم من طريق الإعزاز لها ، وما يجدون على الناس في مما لا خطر له ، وذلك كله من داء العز وحركته أمر لم يجز لأهل الجنة ، ولا للملائكة ، ولا للنبيين ، يريد القارىء أن يجوزه لنفسه ، وأن يجعله فوق رأسه .

١١٢ ـ وإنما كان ينبغي للصادق في قراءته العمل في إطفاء العز من قلبه في أول أمره ، وأن يجعله تحت قدميه ، ولو أن رجلاً صلى الغداة ، ثم أقبل على نفسه ، وأصلح خصلة من خصال العز ، ليس العز كله ، وآخر تصدق بوزن نفسه ذهبًا على أكباد جائعة من وجهٍ طيبٍ ، لكان الأول أغبط ، وكانت النعمة عليه أكبر ، والشكر عليه أكثر عند أهل المعرفة والعلم .

فكيف إذا أصبح وهو لم تكن له همة إلا العناية بالعز لنفسه ، لتجربته له ، ومعرفته له !!! .

وآخر أصبح ولم تكن همته إلا العناية بنفي العز من قلبه ، ولزوم

التواضع ، وذلك النفس ، لتجربته لنور التواضع ، ومعرفته بفوائده .

فهنيئًا لمن شغله مثل شغله ، ما أنفعه من شغل ، وأرضاه عند مليكه ، وأرْوَحَه للقلب ؟!! .

فاعتبر برجلين أمرا بالعبودية ، وأحدهما أحب أن يجعل نفسه عبدًا كما أمر ، وأحب الآخر أن يجعل نفسه ملكًا ، أي هذين أولى بالجائزة من المولى ، وأيهما يستأهل الموجعة ؟ .

طريق التحرز من العز :

١١٣ ـ قلت : قد وصفت من فساد العز وضرره وشره ما قد وصفت ، فصف لي طريق التحرز والامتناع منه ، فإن المريض إذا عرف داءه ، أحب أن يعرف دواءه ، وهكذا من أحب أن يعرف عيب نفسه ، يحب أن يعرف الذي يصلح به عيبه ؟ .

فقال : إن ابن آدم تكلف نزول الطير من جو السماء فأنزله .

وتكلف خروج الحوت من قعر البحار(١) فأخرجه .

وتكلف إخراج الذهب والفضة من بطن الأرض فأخرجها .

وتكلف أخذ الدواب ، والأنعام ، والوحوش ، والسباع من البراري ، والغياض فأخذها وذللها وسخرها .

وتكلف أخذ الأفاعي والحيات فأخذها .

وتكلف معالجة الشياطين فعالجها .

وتكلف معرفة النجوم في السماء وأسماءها ، ومجاريها ، ومطالعها ، ومغاربها ، وتكلف منازل الشمس والقمر ومجاريها ، ومطالعها ومغاربها .

---

(١) في النسخة (ب) البحر . .

وتكلف معرفة الولد إذا لم يكن من أبيه ، فعرف ذلك كله لما تكلفه .

وتكلف معرفة[١] مرض المريض وأسباب علله بالنظر إلى بوله من غير أن ينظر إليه ، فعرف داءه ، وعرف دواءه ، فعرف كل ذلك .

وتكلف تعلم سير الملوك الماضية من القرون الأولى ، فكتبها ودرسها .

وكل ما تكلف من ذلك فإنها حمل نفسه على تكلفه لطلب الزيادة من الدنيا ، وليس في هذا أمر دينه الذي كُلِّفه شيء .

وكلف تقويم نفس واحدة فلم يقم بتقويمها ، وليس عليه من فساد غيرها شيء ، لم يكلف إلا بإصلاح فساد نفسه وحدها ، فلم يقم بإصلاح فسادها ، فجهل بعض الصلاح ، وعلم بعضًا ، فما جهل فهو جاهل به ، لا يتكلف علمه ، وما علمه من فسادها فهو مضيع لإصلاحه .

ولم يُكَلَّفْ أحد أن يصوم ، ولا يصلي ، ولا يزكي ، ولا يحج ، ولا يتوضأ ، ولا يغتسل عن أحدٍ ، إنما كلف نفسه ، ليس لأحدٍ من صلاح أحد شيئًا ، وإنما صلاح كل امرئ وتقواه لنفسه ، وفي ميزانه ، وأنه ليس في ميزان غيره منه شيء .

وهكذا النية في الأعمال ، لا تنفع نيتي عملك ، ولا تنفع نيتك عملي إذا كانت صحيحة ، ولا تضره إذا كانت سقيمة ، وإنما المنفعة والمضرة على صاحب النية ، وصاحب العمل ، وإنما هي نفس واحدة ، فإذا صار إلى أمر نفسيته لم يعرف خيرها من شرها ولا إقبالها من إدبارها .

يعمل الخير فلا يدري مقبل هو فيه أم مدبر إلابظاهر العمل والدعوى ، ولا يدري أي شيء يعمله للدنيا أو الآخرة ، ليس يميز بين الأمرين ، ولا يفاتش الهمة فيه ، والمحبة له ، ولا الخشية فيه ، ولا يتوقف ، ولا يحسن

(١) سقطت من النسخة (ب) ، وهي في (أ) .

أن يطالع ضميره ، فهو يفسد الخير بالشر ولا يشعر ، هو في ظاهره مقبل ، وهو باطنه مدبر ، وهو في[1] ظاهره آبق إلى الله ، وهو في باطنه آبق من الله.

فسبحان الله !!! ماذا تكلف المسكين من معرفة ما لم يكلَّف ، فشغل عنايته فيه ، وشغل فهمه به ، وأما الذي جهل فضيع من معرفته ما قد كُلّف ، وأُخذ عليه فيه المواثيق .

يدخل عليه الشر والفساد فلا يدري من أين يدخل ؟ وأني أتاه ؟ وكيف هو ؟ وما السبيل إلى التخلص منه ؟ فبقي عند ذلك تائهًا حيران ، وقد عالج ما في الهواء ، وما في قعر البحار ، فعرفه لما شغل عنايته به لمعنى دنياه الذي قد تكلف الله له منها بما قدَّر له ، وضمن له الوفاء بها ، أقبل عليها أو أدبر عنها .

فغلب المسكين الخلق ، وغلبته نفسه ، ولو عنى بمعرفة فساد نفسه وصلاحها ، وخيرها وشرها ، وخاف التلف عليها ، كما عنى بمعرفة ما ذكرنا من أمر دنياه المضمونة له ، لعرف من فسادها ، وصلاحها مثل ما عرف من ذلك ، وقدر منه على ما قدر من ذلك ، ولكنه رضي أن يسلك طريق الدين بالجهالة ، ولم يرض أن يسلك طريق الدنيا إلابعلمٍ وبصيرة ، ومتى شئت رأيته في طريق الدنيا ، وهو يحسب أنه في طريق الآخرة ، ومع ذلك ، فإن بعض المدبرين عن الله تعالى ، المعرضين عنه ، قد تسموا علماء ، ونصبوا أنفسهم للدلالة على الله ، وهم حيارى متصنعة ، مدخولون متشبهة ، يحسبهم الجاهل أدلاء ، وهم عميٌ حيارى ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

بين العز والتعزز :

١١٤ ـ واعلم أن العز والتعزز ليس بغائب ، قادم عليك ، فتريد التحرز منه ، والامتناع عليه ، ولكنه شيء قد حلَّ بك ونزل وتمكن من المنزل ،

---

(١) في النسخة (أ) على موضع في .

واستوى وجلس في صدر المجلس ، وأخذ منك خيرك ، وغلب أخْيَرَ موضع فيك ، واتكأ على مُتكئه ، واستخدم أعوانه بما يوافق هواه في إقبالهم وإدبارهم .

[وإن لم تكن تراه فيه غديت ، وبه تربيت ، وعليه نشأت ، وإياه تعودت ، وإنما تريد مفارقة غذاءك وعادتك ، فكما أنه داء له أصل وفرع ، فكذلك دواءه له أصل وفروع] (١) .

ولا أكثر عليك من صفات فروع دوائه فتمل وتعرض ، ولكن أدلك على الأصل الذي إذا عالجته أتى على الأغصان كلها ، وهو : الإياس من جميع المخلوقين أن يكونوا (٢) يضروا أو ينفعوا ، أو يعطوا ، أو يمنعوا ، أو يحيوا أو يميتوا ، فألزمه قلبك ، فإنه أصل الأصول ، ورأس الأمر وسنامه .

فإن كنت مريدًا صادقًا تحب النظر في عواقب الأمور ، فأغلق على نفسك باب الطمع ، وافتح لها باب الإياس ، وانفرد لذلك بإرادتك كلها ، وتجرد في طلبه ، كالذي ليس له من حوائج الدنيا كلها إلا حاجة واحدة ، وتعزم عزمًا صحيحًا على أن تهب نفسك لله في بقية عمرك ، إن كنت تراه لذلك أهلاً سبحانه وتعالى ، ما أغناه عن أهل السموات وأهل الأرضين ، وما أشد اضطرارهم إليه .

١١٥ ـ فاجعل يا أخي نفسك كهيئة الأسير في أيدي أهل زمانك أيام حياتك في اتباع مرضاة الله عز وجل ، والتخلص من بلية العز ، فإن الأسير مملوك لا يملك ، ولا يطمع أن يظلم أحدًا ، ولا ينتصر من ظالمٍ ، ثم ويجد حلاوة طعم ذكر الله ، ولذاذة المناجاة في عبادة الله .

وإنما قلت لك : استخراج العز ، وقطعه عن قلبك باليأس من الناس ،

---

(١) ما بين المعكوفتين ليس في النسخة (ب) .

(٢) زيادة من النسخة (أ) ليست في (ب) .

لأنه يردك إلى الله ، ورجوعك إلى الله سكون قلبك عليه ، وفي سكون قلبك عليه الازدياد من طاعته ، والوصول إلى خاصية عبادته ، وفي وجود [1] خاصية عبادته النزول عند درجة العبيد ، وفي النزول عند درجة العبيد ، إصابة شرف العبودية ، وفي إصابة شرف العبودية اكتساب القلب المذلة لله عز وجل ، [وفي ذلك افتقاد العز المذموم من قلبك فتكون أعز ذليل تذللت لله عز وجل] [2] .

فأعزك بطاعته ، وخضعت له ، فشرفك بعبادته ، قال الله عز وجل : ﴿ **ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين** ﴾ [3] .

وقال في المذموم من العز : ﴿ **كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار** ﴾ [4] .

١١٦ - [وقد روي أن : « العز إزار الله ، والكبرياء رداء الله فمن نازع الله واحدًا منهما أدخله النار » [5]] [6] .

١١٧ - قلت : وكيف يميز بين العزين ؟ .

قال : أما المذموم منهما فينبو عن طاعة الله ، والمحمود منهما يزيدك تذللاً في طاعة الله عز وجل .

واعلم أن الأمر إذا انتهى في الضيق اتسع ، وما هو إلا قطع الطمع ، واستعمال الإياس ، فإذا أنت قد صرت في وادي الروح ، والراحة ، والفرح ،

---

(١) في النسخة (ب) موضع كلمة (وجود) : (وفي الوصول إلى) .

(٢) سقط من النسخة (ب) ما بين المعكوفتين .

(٣) سورة المنافقون : ٨ .

(٤) سورة غافر : ٣٥ .

(٥) سقط ما بين المعكوفتين من النسخة (ب) .

(٦) **حديث صحيح** . أخرجه أحمد (٢ / ٢٤٨) ، ومسلم (٢٦٢٠) بنحوه ، وأبو داود (٤٠٩٠) ، وابن ماجه (٤١٧٤) ، (٤١٧٥) .

فتنعمت مع أهل هذه الدرجات ، بذكر الله ، والتلذذ بحلاوة المناجاة ، والبكاء من خشيته ، ذقت حلاوة اليقين ، وفرح الرضا ، وراحة التفويض ، وخفة محمله ، ثم صرت تنظر إلى من يتعذب ويجول في سلطان العز وملكه ، فهنيئًا لك حينئذ ، تصبح وتمسي ليس لك هم ، ولا حزن إلا فيا أنت وارد عليه من أمر آخرتك ، والله ينظر إلى همتك وإرادتك في واد ، والناس في واد غيره .

واعلم أنه من كان من أهل العناية بنفسه ، ورزق فهم التجربة ، بلغ معرفة الخير والشر ، وعرف من أين وكيف ، وعبر ووصف ، وفهم وفطن ، ونطق بالحكمة ، وكان ما يسمع من الموعظة زيادة له في فهمه ومعرفته ، ووصفه ، ودقائق فطنته ، وسر حاجته .

ومن كان من أهل العناية ولم يرزق فهم التجربة ، عرف من معرفة الخير والشر على قدر عنايته ، ووصف عن صفتها وعبارتها ، ومن أين وكيف ، وضعف عن النطق بالحكمة ، وكانت الموعظة زيادة له في معرفة خيره وشره ؛ ومن لم يرزق الفهم ، وليست له عناية ، فهو لا ينطق بلسانه عند الكلام ، ولا يعقل بقلبه عند السماع .

ويروى أن الحكمة تقول : « من طلبني فلم يقدر عليَّ ، فليعمل بأحسن ما يعلم ، وليدع أشر ما يعلم » .

الأمور منافعها وضررها :

١١٨ - وقال : الأمور منافعها متفاوتة ، وضررها متفاوت ، فمنفعة بعضها أكثر من بعض ، وضرر بعضها أكثر من بعض ، ونجد أكثر الناس إنما عنايتهم بإصلاح ما هو أقل ضررًا ، فهم في إصلاح ذلك أكثر من إصلاح ما هو أكثر ضررًا ، وطلبهم لما هو أقل منفعة ، أكثر من طلبهم لما هو أكثر منفعة .

وبعض الأمور تركها أشد على العبد من بعض ، وصاحب الإرادة لا ينبغي أن يغلط في هذا ، ولكن يفاتش أموره كلها مفاتشة شديدة بالعناية

وغائص الفهم ، ودقائق لطائف الفطن ، حتى يعلم ما هو أشد عليه في الترك ، ويعلم ما هو أسلم له ، وأنفع له ، فيجعل جِدَّه وجديده ، ومعرفته وعلمه ، وفهمه وكياسته ، وعنايته وفطنته فيما هو أشد عليه في الترك ، وأكثر ضررًا عليه .

١١٩ - والناس في ذلك مختلفون ، فرب رجل يهون عليه ترك شيء يشتد على غيره ، ويشتد عليه ترك شيء يهون على غيره تركه ، ويشتد عليه طلب ما يهون على غيره ، ويهون عليه طلب ما يشتد على غيره ، لأنه حُبّب إلى هذا من الأشياء ما لم يُحبّب إلى غيره ، وبُغض إليه من الأشياء ما لم يبغض إلى غيره ، وربما كان أمران ضاران كلاهما ، وأحدهما أكثر ضررًا من الآخر ، ومؤنة تركه ليست بأشد على صاحبه من تركه الآخر ، ولكن المعرفة تقصُر بالعبد عن حسن المأخذ له ، والترفق فيه ، فهو لما هو أشد عليه تركه ، وأقل ضررًا أقوى ، وأترك له مما هو أكثر ضررًا ، وأهون عليه تركه ، وهو عن ذلك أضعف ، وأعجز عنه ، ولا يعرف هذا إلا من يقلب الأمور تقليبًا ، ويفاتشها تفتيشًا ، فينظر هذا الذي يُؤتى منه ، ما سببه ؟ ثم لم ير على نفسه من ترك ذلك السبب كبير مؤنة ، فيقول : لا أترك هذا ، ولكن أترك الأمر[1] الذي يشتد على نفسي تركه ، وليس فساد ذلك الأمر الذي قد عزم على تركه ، وهو أشد عليه ، كفساد هذا الأمر الذي لم يعزم على تركه .

١٢٠ - قلت : فما الذي بطّأ بالخاصة ، والعامة عما هو أكثر لهم ضررًا ، وأشد عليهم ؟ .

فقال : قد أخبرتك أن الناس فيه مختلفون ، فرب شيء هو أسلم من شيء آخر ، ورب شيء هو أضر عليهم من الآخر .

---

(١) في النسخة (ب) هذا .

وأما أنا فلا أعرف خصلة أكثر في الناس ، ولا أغلب عليهم ، ولا أكثر ضررًا ، ولا أشد عليهم تركًا ، على الخاص والعام ، والعالم والمتعلم والجاهل من الغفلة ، وأشد الغفلة الذي أنت عنه غافل ، وبه جاهل ، وأشد ذلك على الناس ، وأكثر عندي فيهم : الإعجاب .

انظر هل ترى أحدًا هو عند نفسه جاهل في أمر الآخرة وأمر الدنيا ؟ .

انظر هل ترى أحدًا يتعرض لشيء لا يعلمه ، وليس هو حرفته ، إلا يقول : أنا به عالم ؟ .

وإنما أُتي هذا الجاهل المغتر المدعي لعلم الآخرة من قلة قدر الآخرة في قلبه ، وقلة تعظيم حرمات الله عز وجل .

وانظر هل ترى أحدًا عند هذا الغافل المغتر الجاهل أرفع عند نفسه منه ، وأعلم منه ؟ فيقر بذلك على نفسه ، إلا ما لا يجد منه بدًا ، ولا يستطيع دفعه ؟ .

١٢١ ـ قلت : فما الذي ترجو أن يكون أنفع وأصلح ؟ .

قال : التيقظ أصل كل خير ، كما أن الغفلة أصل كل شر ، فما أكثر من يكون عند نفسه متيقظًا وهو غافل ، وما أحب إليه التغافل عن التيقظ ، وأنسه بالغفلة .

واعلم أن أبيَن علامات التيقظ : الهم والحزن ، ثم حسن الاستعداد لما اهتم له وحزن عليه .

وأبين علامات الغفلة : البطر والمرح ، لأنهما يسهيان وينسيان التيقظ ، وفي ترك التيقظ ترك الاستعداد لما بعد الموت .

التيقظ والغفلة :

١٢٢ ـ قلت : فما التيقظ ؟ وما الغفلة ؟

قال : التيقظ : تقريب الأجل ، ومراقبة الموت ، والفكر فيا يصير إليه العبد من بعد الموت ، ومن هذا يفتح لك باب العمل ، فتبتدر إليه من قبل أن يبتدر إليك الموت ، وتستغنم كل ساعة من حياتك قبل انقضاء الأجل .

فإن رزق العبد الدوام عليه نبع من ذلك ينابيع الخير إن شاء الله عز وجل .

١٢٣ ـ وأما الغفلة فطول الأمل ، ونسيان ذكر المعاد إلا بالخاطر ، ولا يدوم عليه العبد إلا رمي بالخير وراء ظهره ، ومنها يتولد التسويف ، والوقوع في بحر الآثام .

١٢٤ ـ قلت : فهل من شيء يقوي على التيقظ ، وترك الغفلة ؟ .

قال : نعم ، إخلاص الدعاء ، ومصاحبة من يريد ما تريد ، ومفارقة من لا يريد ما تريد ، فإن صحبة من لا يريد ما تريد تضرك وأنت لا تشعر ، وصحبة من يريد ما تريد تنفعك ولا تضرك ، وإن كنت لا تشعر .

وإنما الناس يؤتون من ثلاثة أشياء : من الغفلة ، والغلبة ، والجهالة ، ورب رجل تجتمع فيه الثلاث خصال كلها [١] ، ولو قلت : إني لا أعلم من أبرئه منها لكنت صادقًا .

١٢٥ ـ وقال : كن ممن يحث على الخير ، ويحب عليه ، ولا تكن ممن يريد أن يُحبَّ على الخير .

١٢٦ ـ وقال : كل شيءٍ ليس فيه نفع ولا مرفق فلا تمكن فيه النية ، وكل

---

(١) سقطت من النسخة (ب) .

شيء فيه نفع ومرفق فلا يجوز إلا بنية .

١٢٧ ـ وقال : عجبت ممن ضعفت نيته في حسناته ، وصحت في شهواته ، ولا يكون ذلك كذلك إلا من المخدوعين المموّه عليهم ، أو من الخادعين المموّهين .

١٢٨ ـ وقال : من صحح خصلتين فقد استحكم أموره كلها : من صحح لِمَ ولِمْ يقل : لِمَ لَمْ أعمل ؟ ولِمَ عملت ؟ ولِمَ لا أعمل ؟ ومن ضيع أو جهل فعلى حسب ذلك .

١٢٩ ـ وقال : اعزل من أخلاقك ثماني خصال : التكلف في القول ، والفعل (١) ، والمراء ، والمداهنة ، والجريرة ، والخب ، والخداع ، والمزاح ، والتفريط (٢) .

١٣٠ ـ وقال : التغافل عما يكره الله قسوة في القلب ، وفي قساوة القلب ذهاب حلاوة الأعمال ، وفي ذهاب حلاوة الأعمال قلة الطاعات ، وفي قلة الطاعات قلة الشكر ، وفي ترك الشكر فساد ما عملت ، وحرمان ما طلبت ، وانقطاع الزيادة .

١٣١ ـ وقال : إنك في زمان أسلم الناس فيه : جائع ، مستوحش من الناس ، محزون مهموم .

١٣٢ ـ وقال : الإنسان محارف للتفريط ، معتاد للبغي ، مشغوف بالتسويف ، مجبول على الملل والنسيان ، وهو موصوف بعدم العزم ، مطبوع على الأمل ، منعوت بالجزع عند الشدة ، وبقلة الشكر عند النعمة ، مولوع بالانخداع والاغترار .

---

(١) في النسخة (ب) العمل مكان « الفعل » .

(٢) في النسخة (ب) التغيظ .

١٣٣ ـ وقال : معرفتك بعيبك وعيب غيرك سواء ، فمن لم يعرف عيب غيره يعرف عيب نفسه ، فإذا ظهر لك من عيوب الناس ما خفي عليك من عيبك ، استدللت بعيوب الناس على عيبك ، وإذا ظهر لك من عيبك ما خفي عليك مثله من عيوب غيرك ، فلا توقع ذلك بغيرك حتى يظهر لك منه مثل ما ظهر لك من نفسك ، [وألزم نفسك ذلك العيب ، وارجع إلى صلاحه منها ، ونقصًا عليها معرفة عيوبها] (١) ، وتجسس عليها ، وفاتشها ، وواقفها ، وحاسبها ، وخذها بأداء ما عليها أشد الأخذ ، ولا تطلبن ذلك من غيرها ، فإذا ظهر من غيرها شيء فأمكن طلب العذر له فاطلبه ، وأما نفسك فلا تطلبن لها عذرًا ، وإن اعتذرت فلا تقبلن منها .

أعمال البر كلها بالنية

١٣٤ ـ وقال : أعمال البر كلها على وجهين : سرّ وعلانية ، فمن لم يقدر على تصحيح النية (٢) فيما يعمل من السر كان للتصحيح فيما يعمل من العلانية أبعد ، ومن قوي على تصحيحها في العلانية كان فيما يسر من أعمال أقوى ، وهكذا في القليل والكثير ، من لم يقدر على تصحيح النية في القليل من العمل ، كان في الكثير منه أبعد .

١٣٥ ـ وقال : الرياء على وجهين : رجل قد عمل أعمالاً من البر فنال بها ثناءً ، وجاهًا ، وقدرًا ، وهو يريد فيما يستقبل من الأعمال الإخلاص ، فمن لم يقدر على ترك الرياء فيما يستقبل ، كان فيما عمل ونال به الجاه والقدر والمحمدة ، والمنزلة (٣) ، من الناس من الإخلاص أبعد .

فهكذا في كل شيء ، ترك ما لم تملكه أيسر من ترك ما قد ملكته .

---

(١) ما بين المعكوفتين سقط من النسخة (ب) .
(٢) في النسخة (ب) السر .
(٣) زيادة من النسخة (أ) .

١٣٦ ـ قلت : فمن أحق الناس بصدق النية ؟ .

قال : أشدهم لها حبًا .

١٣٧ ـ قلت : فمن أبعد الناس من صدق النية ؟ .

قال : أزهدهم فيها ، وأزهد الزاهدين فيها أنساهم لها ، وأنسى الناس لها أجهلهم بها .

١٣٨ ـ وقال : أول علامات الرياء : رضا الرجل بجهالة صدق النية في أعماله ، وأول صدق الرجل : عنايته بمعرفة صدق النية ، وإخلاص العمل ، وقال النبي ﷺ : « الأعمال بالنية »(١) .

١٣٩ ـ وقول : « أخوف ما أخاف عليكم : الرياء ، والشهوة الخفية »(٢) .

فما بال العبد يتعلم كيف يعمل ، ويتحمل مؤنة العمل ، فيعمل بما قد علم ، ولا يتعلم كيف ينوي ، فيتعلم من العلم ما يعمل به ، وما لا يعمل ، ولا يتعلم صدق النية ، لا فيما يعمل ، ولا فيما لا يعمل .

يعيش ما عاش ، ويموت إذا مات ، ولم ينتبه لذلك ، والنبي ﷺ ، ومن بعده الأئمة ، وأهل العلم والمعرفة يحذرون الرياء ، حتىٰ أن بعضهم قال : أدخل البيت المظلم فأصلي فيه ركعتين لعلها تخلص لي .

١٤٠ ـ وقال الثوري : « ما كنت أعتدُّ بعمل يراه الناس » .

ولو كتبنا في الكتاب مثل هذا لا حتجنا إلى دفاتر .

فرب رجل يعمل عملاً ، وهو يرى أنه فيه صادق ، ولا يتبين صدقه في دعوى صدقه إلا بعد عشر سنين ، وإن شئت قلت خمسين سنة ، فما العشر ،

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) **حديث ضعيف** . أخرجه أحمد (٤ / ١٢٤ ، ١٢٦) ، وابن ماجه (٤٢٠٥) .

والواحد ، والخمسون ، والمائة فيه إلا واحد .

١٤١ ـ قلت : مثل أي شيء ، فقد جئت بالقول العظيم ؟ .

قال : مثل الرجل يتصدق على الرجل بصدقة ، أو معروف يصطنعه إليه ، يزعم أنه أراد بذلك وجه الله وحده ، ولم يرد به جزاءً ولا شكورًا ، ثم بدت له أو لغيره قبل المصنوع إليه المعروف حاجة فقضى حاجة غير الذي كان قد صنع إليه المعروف أو تصدق عليه ، ولم يقضِ حاجته ، فذكر صدقته عليه في نفسه فوجد عليه ، حيث لم يقضِ حاجته ، وقضى حاجة من لم يتصدق عليه ، ولم يصنع إليه معروفًا ، فتبين صدقه في ذلك الوقت من كذبه ، ولعل ذلك بعد ما صنع المعروف بزمان من الدهر .

أو رجل يكون صاحب عبادة خمسين سنة يرى أنه صادق فيها ، لا يريد بها جزاء ، ولا شكورًا في سره ، ولا في علانيته ، فنابت نائبة ، فكتبوا أسماء صلحاء الموضع الذي هو فيه وعبادهم ، فلم يكتبوا فيه اسمه ، أو جعلوه في آخرهم ، وقدموا من لم يكن مثله في العبادة ،فأنكر ذلك في نفسه ، ووجد منه ، حيث لم يجعلوه في أولهم ، فتبين عند ذلك صدقه من كذبه في عبادته ، ولو كان صادقًا لم يجد في نفسه ، ولم ينكر ما صنعوه ، وعدها من كبير نعم الله عليه ، ففي هذا وأشباه هذا بيان أنه أراد به جزاء وشكورًا .

وكل عمل لم يَتَنَبَّه له صاحبه ولم يمتحنهُ ولم يختبره ، ويفاتشه ، فهو ملتبس ، والملتبس لا تبين حقيقته إلا عند البلوى ، والناس ليس يحاسبون على قدر علمهم ولا جهلهم ، وإنما يحاسبون بما لهم وعليهم على قدر ما أمروا به ، ونهوا عنه .

أبواب العلم الواجبة على الخلق :ـ

١٤٢ ـ فثلاثة أبواب من العلم على الناس أن يعرفوا ما خفي منها وما ظهر : بابان فيما بينهم وبين الله تعالى ، وباب فيما بينهم وبين الناس .

فأما الذي بينهم وبين الناس : باب النصح لقول النبي ﷺ : « الدين النصيحة »(١) فيما خفي من الأشياء ، وفيما ظهر ، وما قل وما كثر ، للقريب والبعيد ، والعدو والصديق .

والذي بينهم وبين الله تعالى : باب النية وتصحيحها ، والإرادة في الأعمال ، فيما خفي منها ، وما ظهر ، وما قل أو كثر ، لقول النبي ﷺ : « الأعمال بالنية »(٢) .

والباب الثاني : معرفة الرجل نفسه :

فأما باب النصح فكون(٣) نيته ، وسيرته ، ومذهبه في السر والعلانية : أن أمور الأمة كلها لو أجريت على ما في ضميره وسريرته ، لأحب أنها رَشَدتْ أمورُها ، وأطاعت ربها ، وصار إلى كل واحد منهم حظه من الحق والعدل .

فإن كانت هذه سريرته في خاصته ، وعلى هذا نيته في العامة ، رجوت أنه في كل أمر جليل ، ونعمة عظيمة ، لا يعلم قدرها إلا الله تعالى ، وإن خالفت سيرته في خاصته وعامته هذا الوصف ، فلاحظٌ له في نصح(٤) الخاص ، ولا العام ، وكان ما يدعي أنه يضمر وينوي في سريرته من نصح الخاصة والعامة مردودًا عليه غير مقبول منه ، ولا نعرف في أبواب العلم حديثًا أجمع في الأشياء كلها من هذا الحديث ، وهو قوله ﷺ : « الدين النصيحة » .

ولا أقرب ، ولا أقصد قصدًا ، ولا أحسن في أعمال البر كلها حسنًا ،

---

(١) **حديث صحيح** . أخرجه البخاري (١/ ٢٢) ، ومسلم (٢/ ٣٧ ، نووي) ، وأبو داد (٤٩٤٤) ، والترمذي (١٩٩٠) ، وأحمد (١/ ٣٥١) ، (٢/ ٢٩٧) ، والنسائي (٧ / ١٥٦) .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) في النسخة (ب) فتكون .

(٤) في النسخة (ب) النصح .

ولا بطريق الصالحين أشد اتباعًا من هذا الحديث ، ولا أحوط في الحق والعدل ، ولا أرضى منه [١] عند الخاصة والعامة ، وهو : أن تحب للناس ما تحب لنفسك ، وتكره للناس ما تكرهه لها ، والنصح أصله من أعمال القلوب ، وفروعه من أعمال الجوارح ، فربما أجرى بالقلب ، ولربما لم يجر إلا باللسان ، وربما لم يجر إلا باللسان والجوارح .

١٤٣ ـ وقال : إن الشيء يغلب الشيء ، والشيء يشغل عن الشيء ، والشيء ينسي الشيء ، والشيء يهيج الشيء ، والشيء يزيد الشيء ، والمحاسب نفسه قد عرف هذا ، وأدناه : التيقظ ، وأعلاه النسيان .

١٤٤ ـ واعلم أن الشر شهوةٌ ، والخير كراهية ، والشهوة سابقة على الكراهية ، وغالبة عليها ، حتى يجيء العلم والصدق فيزيلان الشهوة ، ويجعلان الكراهة مكانها ، فمن لم يفقه ، ولم يفهم هذا حين يسمعه ، لم يحسن مراجعته سريرته ، ولا يجيء على إصلاحها حتى يتعلمه ممن يحسنه ، ويحسن وصفه ، ولولا كثرة القول فيه لكتبناه .

١٤٥ ـ وقال : نعم الصاحبان : الهم والحزن بأمر الآخرة ، ونعم الشغل المحاسبة ، وصاحب الهم والحزن ، والمحاسبة يجعل الساعة التي ليس فيها هم ، ولا حزن ، ولا محاسبة ساعة بطالة ، وأقل قليل الغفلة ، عنده كأكثر الذنوب عند غيره .

١٤٦ ـ ومن علامة اليقين في العبد إدامة الحزن فيه .

يا أخي ، ولو لم يحزن العبد إلا لما يكون فيما يستقبل من الأعمال من الجفاء ، والسهو ، والغفلة وقلة الصدق في فرضه ونافلته ، مثل الذي قد عمل ، ولما يجد فيها من قلة الحياء والمراقبة ، لكان جديرًا أن يحزن ويهتم .

---

(١) زيادة ليست في النسخة (ب) ، وهي في (أ) .

ولو لم يحزن ويهتم إلا لأ نه لو جاء من الأعمال بمثل أعمال الملائكة ، والجن ، والإنس ، والعالمين كلهم ، لم يكن عنده علم أن ذلك في المقبول أو في المردود ، ولا يدري أيقبل من ذلك كله مثقال ذرة أو يرد عليه ، لكان ينبغي له أن يحزن .

ولو لم يحزن إلا لأنه لو قيل له : اختر من عمرك أي ساعة شئت لم تعص الله فيها لسبب من الأسباب لما كان يجد ذلك ، لقد كان ينبغي له أن يحزن .

ولو لم يحزن إلا لأنه لو قيل له : هل تعرف ساعة واحدة من عمرك أديت إلى الله سبحانه فيها جميع ما أوجبه عليك كما أوجبه لقال : ما أعرفها ، لقد كان ينبغي له أن يحزن .

١٤٧ ـ قلت : أخبرني كيف أحاسب نفسي في معرفتها ؟ .

فقال : إن الأشياء تعرف بالدلالات ، والعلامات ، والأمثال ، وسأضرب لك في ذلك مثلاً يكون علمًا لما سألت عنه : .

إن مثل الناس في جملتهم ، وفي تفرقهم بعد المعرفة بهم ، والخبرة لهم ، وتفاوتهم ، وتفاضلهم ، مثل سفط [1] موضوع في طريق ، فيه قوارير مملوءة موكاة الرؤوس ، يمر به الناس لا يدرون ما فيه ، فعرض له من الناس عارض من المارة ، فقال : لأكشفن عن هذا السفط فلأنظرن ما فيه ، فكشف عنه فرأى قوارير مملوءة لا يدري ما فيها ، فحل أوكيتهن كلهن ، فبدا له من هذه رائحة المسك ، ومن هذه رائحة العنبر ، ومن هذه رائحة البان ، ومن هذه رائحة الخلوف ، ومن هذه رائحة الغالية ، ومن هذه رائحة الياسمين ، ومن هذه رائحة الورد ، وسائر الطيب والأدهان ، ومن هذه رائحة الكبريت ، ومن هذه رائحة النفط ، ومن هذه رائحة القطران ، وما لا طاقة له بالقيام

---

(١) السفط : كالجوالق ، يُعبى فيه الطيب وما أشبهه .

عندها من شدة نتن ريحها .

فالناس في جملتهم مثل السفط والقوارير ، وهم في معرفتهم ، والبحث عن أخلاقهم متفرقون على قدر القوارير ، ومثل السفط أيضًا في جملته مثلك أنت وحدك ، والقوارير أخلاقك ، وآدابك ، وريحها الطيبة خير أخلاقك ، وآدابك الحسنة المرغوب فيها ، والرائحة المنتنة شر أخلاقك ، وآدابك السيئة القبيحة ، ولا تُعرف النفسُ حتى تُمتحن وتُختبر .

فاختبر نفسك حتى تعلم ما فيها ، وإن أردت ذلك فعاملها بالموافقة لها ، والمفاتشة لهمتها في وقت الهمة ، وأحدَّ إليها النظر حتى تعرف حلمك في الوقت الذي عُرض لك فيه سفيه فسفه عليك ، ليس في الوقت الذي وافق هواك .

علامات ودلائل أمام النفس :

١٤٨ ـ واعرف تواضعك في وقت ما جفاك جاف ، وأكرمك مُكرم ، فإن فيها الفتنة ، فإن العبد ربما تواضع وأظهر ذلك عند الكرامة ليزداد منها ، وربما تواضع عند الجفاء ليثبت له بالتواضع عند ذلك منزلة بين الناس ، فتوقف عند ذلك كله ، وفاتش الهمة . واعرف صمتك عند خوفك[1] من سقوط جاهك عند من لك عنده الجاه والقدر .

واعرف صدقك عند الحالة التي يتصنع ويتزين في مثلها المتزينون ، والمتصنعون .

واعرف نصحك عند حبك لنفسك ، ولصديقك ، وعدوك ، حتى تعلم : هل تحب لغيرك ما تحب لنفسك أم لا ؟ .

(١) في النسخة (ب) عند الخوف .

واعرف صبرك عند ترك شهوة قد ملكتها ، هل تستطيع تركها ، وتصبر[١] على ذلك أم لا ؟..

واعرف ورعك عند الحالة التي قد [٢] استمكنت منها ، هل تستطيع الوقوف عندها إذا التبست عليك أم لا ؟ .

واعرف عقلك عند ترك مالا نفع لك فيه في الدنيا ، ولا في الآخرة ، ولا ثواب لك عند الله تعالى ، هل تستطيع ترك ذلك أم لا ؟ . .

واعرف أمانتك عند هواك في الوقت الذي تهواه ، هل تضبط أداء أمانتك في ذلك الوقت أم لا ؟ .

واعرف طمعك في وقت هيجان رغبتك ، هل تستطيع عند ذلك الإياس أم لا ؟ .

فإن كنت في هذه الحالات ، والأوقات محمودًا فما أحسن خبرك[٣] ، واحمد الله ، واسأله الزيادة من فضله ، وامض فإنك على سبيل الاستقامة ، وطريق المحبة ، ومحجة الإيمان .

فاتق الله وراجع مفاتشة نفسك ، وإصلاح فسادها .

١٤٩ ـ قلت : يجيء مني في بعض أحوالي ما أمقت نفسي عليه ، وتشتد عليه ندامتي ؟ .

قال : مقتك لها من معرفتك بها ، وندامتك عليها دواؤها ، فإذا نظرت إلي عثرة غيرك ، فاذكر عثرتك ، ومقتك لنفسك ، ولو أن مصلحة النفس ومنفعتها كانت فيما تهوى أو تشتهي ، لكان الناس كلهم صالحين ، ولكن جعل

(١) سقطت من النسخة (ب) وهي في (أ) .
(٢) انظر السابق .
(٣) في النسخة (ب) خيرك .

صلاحها فيما تكره ، وفسادها فيما تحب وتشتهي .

أما إنها لا تكره الصلاح والخير ، ولكن تكره المكروه الذي به تنال الصلاح والخير ، ولو أمكنها درجة الأبرار بأعمال الفجار لقبلتها ، فأما الشر فإنها تحبه ، وتحب خصاله ، وطرائقه ، وكل شيء منه .

١٥٠ ـ ومن محاسبتك لها : أن تخلو بها ، وتردد عليها فعالها ، فتقول : يا نفس ، إنك لا تقدرين أن تخادعي الله ، ولا تغالبيه ، فلا تقبلي مخادعة الشيطان ، ولا مغالبته ولا تتبعي هواك ، فيرديك ويهلكك ، وإني لست أحملك على مالا طاقة لك به ، ولا علم لك فيه ، وإني أراك تحب لنفسك ما تمقت عليه غيرك ، وتكره لنفسك ما تحب عليه غيرك .

أراك تحب أهل التواضع ، والصدق ، والأمانة ، حتى لو رأيت قبورهم وآثارهم لأحببتها فيما تزعم ، وتكره خصالهم التي بها نالوا الحب منك ، حتى لو قدرت أن تكون في أعدى عدوك بعد أن تزول عنك لكان ذلك منيتك .

فإما أن تكون تريد مخادعة الله إذ علمت أنه يطلع منك على ذلك ، وإما أن تكون لا تحسن أن تطلب الخير .

١٥١ ـ ياأخي ، إن الجائع يحب الخبز ، وإن العطشان يحب الماء ، ولو جعل الخبز والماء بين أيديهما على مائدة ، أو علق في أعناقهما ، ما نفعهما علمهما بأن الخبز والماء معهما ، ولا ينفعهما قربهما منهما ، دون أن يأكلا من الطعام ويشربا من الشراب ، وهكذا أنت لا ينفعك علمك بالخير ولا قربه منك ، ولا حبك له ، حتى يكون فيك ، وتكون من أهله ، بل لا أزعم أنك تحبه ، ولكنك مخدوع أو مخادع في دعواك أنك تحبه .

١٥٢ ـ ياأخي ، هل رأيت عطشان استمكن من الماء البارد فلم يشربه إلا مدع للعطش ليس بعطشان ؟ .

أم هل رأيت جوعان وجد طعامًا قد أمكنه ، فلم يأكله إلا مدع للجوع ، وليس بجائع [١] ؟ .

فما أبيَن إبطال دعواك فيما تزعم أنك تحب الخير وأهله إذا قست ما تحب من الدنيا بما تحب من الآخرة ، لأني أراك إذا أحببت شيئًا من الدنيا ، أحببت ألا يكون لك مالك غيرك ، هذا هو الحب الصادق بعينه ، فإذا أحببت شيئًا من أعمال الصالحين - فيما تزعم - فليس شيء أثقل عليك من أن تكون أن صاحبه ، ولو كنت محبًا له لأحببت ألا يكون أحد سبقك ، ولا يملك منه أكثر من الذي تملك .

عتاب ومعاتبةٌ :

١٥٣ - يا أخي ، أما آن لك أن تملَّ وتشبع من الكذب ، والاغترار بالله تعالى ؟ .

أما آن لك أن تحب أن يكون اسمك يومًا واحدًا من جميع عمرك مع أسماء الصالحين المتواضعين ، المخلصين [٢] الناصحين ، الشاكرين الراضين ، الصابرين المسلمين ، الواثقين المتوكلين ، المفوضين الخائفين ، المشتاقين العارفين ، العالمين الموقنين .؟.

بحق أقول لك : لو مات أحد من العجب كان ينبغي لك أن تموت مكانك ، إذا نظرت فيما أنت فيه من إيثارك للدنيا ، وإقبالك عليها ، واستيقانك بأنها لا شيء ، ورضاك بترك طريق الصالحين ، وأهل الخير ، وصحبة محمد ﷺ ، ومجاورته في الجنة .

فلو كانت صحبته في الدنيا ، ثم تركت الدنيا كلها ، وأثرت صحبته ،

---

(١) في النسخة (ب) بجوعان .

(٢) زيادة من النسخة (أ) ليست في (ب) .

لكان الذي تركت حقيرًا عند الذي نلت ، فكيف الصحبة في الجنة ، مع دوام الملك في جوار الله ، وجوار أحبابه ، مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين ، والصديقين ، والشهداء ، والصالحين ، وحسن أولئك رفيقًا ، في الحِبَرة ، والنعمة ، والسرور الدائم الأبدي (١) ؟

فراجع نفسك ياأخي ، وانظر ما في هذه المخادعة ، وما الذي قد غلبك ، وغلب يقينك ، أو ما هذه الخدعة التي قد دخلت عليك ؟ .

وفكر فيما تصير إليه من موازنة عملك ، وسؤال الله إياك عن مثاقيل الذر والخردل ، وما فوق ذلك ، ودون ذلك .

وفكر في سرعة انقضاء الأجل ، وعليك بقصر الأمل ، فلا تفارقه ، ولا يفارقك طرفة عين ، لا في ليلٍ ، ولا في نهار .

ياسبحان الله !!! كيف لا تدهش ، ولا يذهب عقلك تعجبًا من أمرك ؟ .

فراجع أمرك ، وانظر ما يراد منك ، فإنما يراد منك إذا عملت عملاً أن تريد به وجه الله ، أو لا تعمله ، فهل تكون أقل من هذا ؟ هذا في نوافلك ، وأما فرائضك فإنك غير معذور في تضييع مثقال ذرة منها ، حتى تعمل بما أمرت به ، وتنتهي عما نهيت عنه . وما كلِّفت أمرًا لا تطيقه ، وما كلِّفت ما لم يُكلَّفُ به غيرك ، ويراد منك مع ذلك : أن تريد للناس الخير ، وإن لم ترد لهم الخير فلا ترد لهم الشر ، فهل تكون أقل من هذا ؟ .

أو ترضى لنفسك أن الناس يريدون لك الخير ، وأنت تريد لهم الشر ؟ .

ويراد منك : ألا تجعل نفسك فوق الناس في نفسك ، لا بقلبك ، ولا بلسانك ، أفتكون أقل من هذا ؟ وقد دُعيت أنت والناس إلى هذا ،

---

(١) في النسخة (أ) الأبد .

لا أنت وحدك .

١٥٤ ـ وقال : أخبرني إن أنت خالفت هذا الأمر ، وأردت بعملك غير الله ، وأردت أن ترفع نفسك فوق الناس ، أو لم تحب لهم ما تحب لنفسك ، أتدرك أو تنال ما تأمل من ذلك ؟ .

أو لست تعلم أنك أبعد ما تكون من الله إذا كنت كذلك ؟ .

ومع هذا لا أراك تطلب الدنانير والدراهم فتنتفع بها ، وترفق بها في أيامك هذه ، وإنما تطلب بذلك الثناء والجاه والقدر ، وقد اخترت سيرة تستوجب بها البغض من خالقك ، وتستوجب البغض أيضًا ممن وافقك عليها لو ظهر من أمرك ما قد (١) خفي ، ولا بُدّ من أن يظهر يومًا ما .

١٥٥ ـ وقال : الصبر ما ترك الناس عذرًا ولا حجة ، فمن لم يلق الله بما أمره بحلاوة الرضا ، فليلقه بالصبر وكراهته ، ومن لم يلق الله ببغض ما نهاه عنه ، فلا يلقه (٢) بالحب له ، بل بالصبر ، فما ترك الصبر للناس حجة .

١٥٦ ـ وقال : من القليل ما يعتبر به الكثير ، وإن أهل الدنيا إذا أرادوا أن يعملوا شيئًا بدأوا بالطلب ، فطلبوا أداة ما يعمل به ذلك العمل ، وإلا فلا سبيل لهم إلى ذلك العمل البتة .

ولو اجتمع أهل الدنيا كلهم ، ومعهم أداة كل صناعة ، هل قدروا أن يثقبوا إبرة إلا بأداتها التي هي أداتها ؟ وهكذا جميع الأشياء كلها (٣) .

هل رأيت بيطارًا قط قدر على صناعته بأداة خياط ؟

أو قدر الخياط على صناعته بأداة البيطار ؟ .

---

(١) زيادة من النسخة (أ) ليست في (ب) .

(٢) كذا في (أ) ، وفي (ب) فلا يلقاه .

(٣) زيادة من (أ) ليست في (ب) .

وهكذا كل عملٍ لا يقدر الحداد على عمله بأداة النجار ، ولا النجار بأداة الإسكاف ، وهكذا أعمال الآخرة لا يقدر عليها إلا بأداتها ، وأصل أداة أعمال الآخرة : العلم ، والمعرفة ، والاعتبار ، فإنها من دلالات الأداة ، ويروى عن النبي ﷺ [أنه] قال : « حبك الشيء يعمي ويصم [١] » .

القلوب والدنيا السحارة :

١٥٧ - ويروى عن عيسى عليه السلام أنه قال : « حب الدنيا رأس كل خطيئة » [٢] .

وأنفع ما عالج به المؤمن في أمر دينه : قطع حب الدنيا من قلبه ، فإذا فعل ذلك هان عليه ترك الدنيا ، وسهل عليه طلب الآخرة ، ولا يقدر على قطعه إلا بأداته ، أما إني لا أقول : أداته الفقر ، وقلة الشيء ، وكثرة الصيام ، والصلاة ، والحج ، والجهاد ، ولكن أصل أداته : الفكر ، وقصر الأمل ، ومراجعة التوبة والطهارة ، وإخراج العز من القلب ، ولزوم التواضع ، وعمارة القلب بالتقوى ، وإدامة الحزن ، وكثرة الهم بما هو وارد عليه .

وما أكثر من يعمل هذه الأعمال التي وصفنا ، وحب الدنيا في قلبه زائد ، وكثير من الناس ، من لا يكثر من هذه الأعمال ، وحبه للدنيا في نقصٍ ، لأنه أخذه من وجهه ، ووجهه : أن يلزم نفسه الفكر ، ويقصر عليه من الأمل ، ولكن الأشياء من حيث أباحها الله ، فيضعها حيث أمره الله ، ويلزم قلبه ذكر قرب مفارقتها ، ومفارقة ما فيه ، وما يصير إليه من الشدائد ، من القبر ، والوقوف بين يدي الله عز وجل ، وطول الحساب ، ولا يدري في أي الصنفين عدده ، ولا في أي الزمرتين اسمه ، أفي الذين يحشرون إلى الجنة زمرًا ،

---

(١) **حديث ضعيف** . أخرجه أبو داود (٥١٣٠) ، وأحمد (٥ / ١٩٤) ، (٦ / ٤٥٠) ، وغيرهما .

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا (٩) في ذم الدنيا بتحقيقي ، طبع بمكتبة القرآن .

أم في الذين يحشرون إلى جهنم وردًا ؟

وتفكر في ذنوبه التي لو أخذ أهل الدنيا بذنبٍ منها لهلكوا ، وطول خلود أهل النار في النار .

وأشد من ذلك غضب الله على أهل النار ، ولما يخاف أن يفوته من رضى الله عن أهل الجنة .

ويقل الفكر في الدنيا وفي نعيمها ، فإن القلب مع الفكر يحيا إن كانت الفكرة في الآخرة ، ويموت إن كانت الفكرة في الدنيا .

١٥٨ ـ قال : وما على العبد أن يعزم على أن يجعل حظه من بقية عمره في الدنيا ما كان من جاه ، أو ثناء ، أو محمدة من الناس ، أو قدر عندهم ، وما كان من فضول النعمة فيها ، فيعزم على أن يجعل ذلك كله لأعدى عدوٍ له ، ولأحسد حاسد له ، لا يقتنم على أقاربه وأصدقائه منها شيئًا ، بعد أن يرجو أن يكون ذلك كله فكاكه من النار ، حتى لو دعي إليه ، وحبس في الحبس الضيق ليقبله لم يقبله ، واختار الحبس عليه ، ولحَذَرَهُ ونَفَرَ منه ، كما كان يطلبه قبل ذلك .

فلعمري لو لم يكن فيه إلا ما يرجو أن يدرك به صلاح ما أفسد فيما مضى من عمره فليصلحه ، وليتخلص مما مضى ، ويجعل الحزن ، والهم ، وقلة ملاقاة الناس عُدة له ، مع الدعاء والتضرع ، ويجعل الموت نصب عينيه ، ويستعين بسرعة الخروج من الدنيا ، فما أهون في عين من نزل منزلاً ، وهو يريد الارتحال منه تركه لجاره ، وما أقل شفقته عليه ، وما أشوق من نزل منزلاً ، وهو يريد المقام فيه ، وأحرص على عمارته .

١٥٩ ـ وقال : إن الناسك إن لم يقبل الحكمة ، ولا الموعظة ، ولا النصيحة من العدو ، والصديق ، والسفيه ، والحليم ، فنُسكه نُسُك الملوك .

١٦٠ ـ قلت : ذكرت شيئًا ينسي شيئًا ، فمثل أي شيء هذا من الأشياء ؟ .

قال : مثل الشبع ، فإنه يهيج الشهوة ، ويورث القسوة ، والبطر ، والثقل ، والنوم .

ومثل كثرة الكلام ، فإنه يقسي القلب ، ويقل البهاء والمهابة ، ويُعقم الحكمة ، ويكثر السقط .

ومثل طول الأمل ، فإنه ينسي الآخرة ، ويذكر الدنيا ، ويحسنها ، ويحببها إليك ، ويورث الحسد ، والتسويف ، ويقوي الهوى ، ويكثر الشهوات .

وفي هذا ما يستدل به على أضداده ، فإذا فكرت فيه عرفت من الأشياء ما يورث الخير ، وما يورث الشر ، وكل شغل يشغل عن غيره من الأشغال ، لأن القلب واحد ، لا يمكنه أن يشتغل إلا بشيءٍ واحد .

الصدق والهوى والنفس :

١٦١ ـ قلت : الصدق والهوى يتفقان على عمل البر ؟

قال : إن الله قادر على أن يسخر الهوى للصدق ، وإن كان فقليل ، والذي يعرف هذا القليل في الناس هم قليل ، والذي يجهله كثير ، لأن الإرادة للعمل قبل العمل ، والهوى والشهوة مما يلي العمل ، والنية والصدق من ورائها .

فكلما أراد العبد أوهمَّ بالعمل من قريبٍ أو بعيدٍ ، ابتدر الهوى ، والشهوة ، والنية الصادقة إلى القلب بذكر ما يرجى ، وما يؤمل من مثل ذلك العمل من حاجات الدنيا ، وشهواتها ، ومنافعها ومرافقها ولذاتها ، وما يؤنس بمثله من الأشياء ، وما حَسُن موقعه من الناس ، وذكرهم له بالثناء

والمحمدة ، والقدر ، والجاه ، والرفعة ، والرئاسة ، والإرادة الصادقة بعدُ غائبة ، ومادامت غائبة فالقلب يقبل هذه الأشياء ، لا يرد منها شيئا لأنه لابد أن يكون للقلب أمل في هذا العمل الذي أراه وهمّ به ، والإنسان أكثر شيءٍ نسيانًا ، وأكثر النسيان منه [١] في ذلك الوقت ، لأن هذه الأشياء التي جاءت بها النفس والهوى إلى القلب مما ذكرنا من الثناء ، والمحمدة ، والرفق ، والقدر ، والجاه ، والرئاسة ، والمنزلة كلها مما يتحلى به القلب ، ويشتهيه ، ويرغب فيه ، فلذلك تكثر الغفلة والنسيان للإرادة الصادقة .

ولو كان مكان الذي يستحليه القلب ، ويشتهيه مرارة ، وكراهية ، لما كان يقبل النسيان ، والغفلة ، ولكن حيث جاءته [٢] الموافقة سكن القلب إلى هذه الخلال .

فمن شاء الله عز وجل أن ينعم عليه حتى تكون الإرادة الصادقة أمام الهوى ، وشهوة النفس ، وحتى يريد بالعمل وجه الله ، والدار الآخرة ، ففي هذا يكون شغل القلب عند ذلك ، وفيما يؤمل فيه من رضى الله عز وجل وثوابه ، وما جاءت به النفس والهوى مما ذكرناه لم يقبله القلب ، ورده عليهم ، ففي هذا أعظم النعم ، وعلى صاحبه أكثر الشكر .

وإن كانت النفس والهوى ، والشهوة سابقات على الإرادة الصادقة ، فلابُدّ لصاحبها من الوقوف ، والنظر ، والفكر ، حتى يُنقي قلبه مما عرَّضت به النفس والهوى والشهوة ، ويجعل إرادة الله مكان ذلك وأمامه ، فيقبله القلب ، ساءه أو سره ، ثم يتحفظ ، ويتعاهد ، حتى يختم العمل الذي افتتحه بالإرادة الصادقة بمثل ذلك ، وبعد فراغه من العمل ، ما دام الروح في جسده .

---

(١) زيادة من النسخة (أ) سقطت من (ب) .

(٢) في النسخة (ب) جاءت .

أشد من نقل الصخر على النفس :

١٦١ - واعلم أن إحكام هذا أعز وأشد من نقل الصخر ، وركوب الأسنة ، إلا من رزقه الله إحكام ذلك ، والعناية به ، مخافة تلف نفسه ، وإحباط عمله ، لأن العدو مُلِحّ مُجدّ ، محتال له في إدخال الآفات التي تفسد الأعمال ، فهو يرصُده قبل دخوله في العمل ، وبعدما يدخل فيه ، وبعدما يخرج منه .

فإن قدم الإرادة ، والنية الصادقة الصحيحة التي لا سقم فيها ، ودخل بها العمل ، ونفى الهوى ، ودفع النفس ، وخالف الشهوة ، وجاهد العدو ، فإن صده بعد دخوله في العمل ، فعرض له بما ذكرنا من الآفات التي تفسد الأعمال ، فإن قبلها حتى يختم العمل بقبولها ، فسد عليه أصله الصحيح الذي كان قد أصّل ، ودخل بها في العمل .

وإن هو لم يقبل ما عرض له به في العمل ، ونفاه ودفعه لم يضره ذلك شيئًا ، وإن هو قبله ، ثم انتبه قبل أن يفرغ من العمل ، فندم ورجع وتيقظ ، وأزال الغفلة ، ثم ختم العمل بالندم ، لم يضره ذلك شيئًا .

وإن هو ختم العمل بالصدق والصحة ، فإنه يطالبه في ذلك العمل ليفسده عليه ، ولو بعد حين .

فينبغي للعبد أن يتقي الله ، وأن يخلص له العمل ، ويقدم له النية أمام كل عمل ،وبعد كل عمل .

إلى الممات ، حتى تكون أعماله كلها لله وحده ، ولا يطلب الثواب إلا من الله وحده ، ويجاهد هذا العدو المسلّط ، ويخالف هذا الهوى ، ويكابد هذه النفس ، ويتقي هذه الشهوة الهائجة في قلبه ، ويعلم من يعامل ، ولمن يعمل له ، وثوابه من يطلب ، ويعمل العمل بهيجان الرغبة في ثواب الله تعالى ، وهيجان الرهبة من عقاب الله تعالى ، وأنه إن عمل على ذلك عمل العمل

بشهوة ، وخفة ، ومحبة ، لما قد هاج من رغبته ورهبته ، فأزال عنه ما ذكرنا من الآفات ، التي تفسد الأعمال .

فإذا عمل على ذلك فكأنما جمع له الهوى والصدق جميعًا ، ولا يبالي إذا كان هكذا موافقة الهوى أو مخالفته ، وما عليه من مخالفة الهوى إذا سلم من شره ، وكان ذلك لا يضره فكأنما وافقه .

فلابدّ من أن يوقف العبد ، ويسأل عما عمل ، ولمن عمل ؟ وماذا أراد بما عمل ؟ .

١٦٢ ـ والإرادة إرادتان : إحداهما للدنيا ، والأخرى للآخرة .

فالصدق والإخلاص إنما هو إذا أراد العبد بعمله وجه الله ، وليس فيه شيء من معاني الدنيا .

والرياء إنما هو : أن تكون الإرادة كلها للدنيا ، فمنه ما يكون العبد يريد بعمله في أصل العمل : المحمدة والثناء ، ومنه ما يكون العبد يريد به في أصل عمله وجه الله والدار الآخرة ، ويحب أن يحمد بعمله ، ويثنى عليه .

ومنه ما يكون العبد يريد بعمله وجه الله وحده ، والدار الآخرة ، فإذا دخل في العمل على ذلك الإخلاص عرض له بعض ما ذكرنا من الآفات فقبلها، وأحب أن يحمد على عمله ، وأن يتخذ به منزلة عند أحد من المخلوقين .

ومنه : ما يكون العبد يريد بعمله وجه الله والدار الآخرة ، ويختم عمله بذلك ، ويطالب بالآفات بعد الفراغ من العمل ولو بعد حين ، حتى يخبر بذلك العمل يريد أن يحمد عليه ، ويتخذ به الجاه والمنزلة ، عند المخلوقين ، [فهذا أسهل من جميع ما ذكرنا ، ونحن نخاف أن نحبط العمل به] (١) ، والناس في هذا مختلفون .

---

(١) ما بين المعكوفتين سقط من النسخة (ب) ، وهو في (أ) .

١٦٣ ـ ففرقة تقول : هذا من الذنوب ، ولا يفسد العمل ، لأن العمل قد مضى وختم بالصحة ، فلا يفسد بعد الخاتمة ، وما لحق العبد بعد ذلك فقبله من هذه الآفات فللّه في ذلك على العبد مقام ومطالبة ، والعمل لا يبطل .

١٦٤ ـ وقالت فرقة : يبطل العمل ، ولو بعد حين إذا قبل العبد [٢] الآفة ، وأحب المحمدة ، وأدخل المخلوقين في عمله ، وأحب عندهم الثناء ، والمنزلة ، والجاه .

١٦٥ ـ قلت : فأخبرني إذا هم العبد بعمل البر ، وعمله وفرغ منه ، ولم يذكر قبله عمله ، ولا بعده إرادة الله والآخرة ، وكان ناسيًا ساهيًا عنها ، أليس هذا عمل بلانية ولا صدق ؟ .

قال : بلى .

١٦٦ ـ قلت : وكيف يكون عمل من أعمال البر مما يراد الله بمثله بلا نية ولا صدق ، وقد عمله العبد ؟ .

قال : إذا لم يكن الصدق ، ولم يقدم النية ، فليس بشيء ، لأن النبي ﷺ قال : « إنما الأعمال بالنية » .

١٦٧ ـ فإن قلت : إني نسيت النية ، وسهوت عنها ، فهذا إقرار ، وليس لك حجة ، وإنما أنساك النية الدنيا ، وإرادتك الغالبة لها ، أو ليس بلية آدم كانت من النسيان وقلة العزم ؟ .

أو لا تسمع إلى قول الله تعالى : ﴿ **ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزمًا** ﴾ [٢] .

---

(١) انظر السابق .

(٢) سورة طه : ١١٥ .

وأنا أقول : إن العمل لا يكون عملاً كما أمر اللّهُ أن يعمل إلا بصدق النية ، وصحة إرادة ، وتقديمها أمام كل عمل ، فهذا عندي هو العمل ، كما قال النبي ﷺ : « الأعمال بالنية » (١) .

واعلم أن وقوفك عند افتتاح العمل ، وذكر الصدق ، وتصحيح النية والإرادة ، وحذرك (٢) من الرياء ، وذكرك الجنة والنار ، ليس يزيد في صدقك ، ولا ينقص من ريائك ، حتى تستعمل التقوى ، وتقدم النية ، وتصدق في الإرادة .

فلا تفتر في ذلك الوقت ، فإن الإنسان يحب اسم الخير ، ويكره نفس الخير ، ويكره اسم الشر ، ويحب نفس الشر .

فما أحب إلى الإنسان اسم الصدق ، وما أثقل عليه نفس الصدق ، ما أشد بغض الإنسان لاسم الرياء ، وما أحبه إليه ، وأخفه عليه ، وأشد استعماله له ، فلا تتساهل في ذلك الوقت عن ذكر النية ، فإن الصدق والنية اسمان ، ونفسهما الإرادة الصادقة ، وإن النفس والهوى يجتثان ثمرة العمل بحلاوتها .

١٦٨ ـ واعلم أن لذتك فيما تجد من حلاوة طعم الحلوى وغير ذلك إنما تجدها عند أكلك إذا أكلتها ، وحلاوة الهوى والشهوة في الفكر إذا تابعته على ما تريد ، ليس له طعام ولا شراب ، إنما لذته من الأشياء أن يتابع في فكره وأصله .

لذة الرياء وحلاوته :

١٦٩ ـ واعلم أن لذة الرياء وحلاوته لذة تخالط القلوب ، وتجري في العروق ، فاحذر ذلك في ابتداء أول العمل ، وفاتش الهمة وتقص تصحيح

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) في النسخة (ب) نفورك .

الإرادة ، وكن في ذلك كله مراقبًا لله وحده .

١٧٠ ـ قلت : إذا أردت أن أعمل العمل ، وقفت قبل الافتتاح ، فراجعت نيتي وإرادتي ، فرأيت الرياء قد سبق الصدق ، ورأيت الصدق غائبًا عني ، فأردت أن أنقل الإرادة بحقيقتها إلى الصدق والصحة ، وحسن النية ، وأن أتقى الهوى بكليته ، وريائه ، وشهوته ، فمتى أعلم أني قد فعلت ذلك ، وأتيت منه على ما أردت ، وقد أردت أن أذكر النية والصدق لا ينفعني حتى يكون بتحقيق الإرادة ؟ .

قال : لأنهما لا يجتمعان في قلبٍ واحدٍ ، ثم قال : ربما اجتمع اسمها ، ولا يجتمع أنفسهما ،فإذا لم ترد النفس وتشتهي ما كنت أنت تريده وتشتهي من إرادة الله تعالى بذلك العمل والدار الآخرة ، فقد علمت أن هذا قد حضر ، وذاك قد غاب ، كما كنت تعلم أن الرياء حاضر ، والنية غائبة .

وإن اشتبه عليك الذي وصفت لك ، فانقض الأمر كأنك لا تريد أن تعمله البتة ، واصدق فيه ، فإن علمت أنك قد صدقت بنقضك له ، فابتدئه من الرأس ، فإن وجدت من نفسك الرضا ، والسكون بنقض العمل ، والترك له ، فاعلم أنه علامة حضور الصدق ، وغيبة الهوى والرياء ، وإن وجدت كراهية النقض والترك فاعلم أن الهوى بعد فيه .

١٧١ ـ قلت : اضرب لي فيه مثلاً يكون أبين من هذا ؟ .

قال : مثل رجل هم أن يتخذ طعامًا يدعو إليه أقوامًا ، فراجع نفسه وعزمه ، فإذا هو يريد أن يدعو فلانًا لشيءٍ كان وافقه منه ، وإذا هو يريد أن يدعو الآخر يريد ضربًا من الاستطالة ، وأن يستخدمه ويخضع له ، وإذا هو يريد أن يدعو الآخر ليستعين به على ظلمٍ ، وإذا هو يريد أن يدعو الآخر ليصيب منه عرضًا من الدنيا ، وإذا هو يريد أن يدعو الآخر فيحمده ويثني عليه ، ويبسط ذكره ، وإذا هو يريد أن يدعو الآخر ليجالسه ويزاوره ، ويدع

مجالسة ومزاورة غيره ، وإذا هو يريد أن يدعو الآخر لحسن لقاء يلقاه به ، وأشباه ذلك مما ليس لله سبحانه وتعالى فيه شيء ، وإنما هو كله للدنيا .

فلما استبان [١] له من نفسه هذا ، ولم تكن إرادته وجه الله ، وما يرجو من ثواب الله على طعامهم ، قال في نفسه : لما تبين له ذلك : لا ، ولكني أترك الإرادة الأولى ، وأحضر إرادة ثانية أريد بها وجه الله تعالى وحده والدار الآخرة .

ثم قال : فلعلي أخدع في هذا وأنا لا أشعر ، لا ولكني أدعو مكان هؤلاء قومًا آخرين أقدم فيهم النية والإرادة الصحيحة أمام الطعام ، أو لا أدعو أحدًا ، فإن رأى نفسه عند ذلك تنازعه إلى أن يدعوهم ، فكراهية النفس لترك دعوتهم ، ومحبتها لدعوتهم ،علامة أنه غير صادق ، وأنه مخدوع .

وإن سكنت إلى الترك ، ورضيت به فهو من علامة الخير ، فينبغي له حينئذ أن يعمله ، وأن يمضي فيه ، فإن شاء دعاهم ، وإن شاء دعا غيرهم بنية جديدة .

وإن الخداع والغلط ، والخطأ والعمد ، والنسيان والفتن ، والبلايا في هذا الباب من إخلاص العمل ، وصدق الإرادة ، وتقدم النية [في هذا الباب] [٢] شديد ، والبلاء فيه كثير ، ولشدته أعطي العبد على العمل القليل بالإخلاص الثواب الكثير ، وآفاته أكثر من أن يضبطها الكتاب ، وصحته أعز من أن يبلغها الآمن المخدوع المغتر بظاهر الكتاب ، وظاهر العلم ، وإنما يدرك ذلك كله ، ويعرفه أهل العناية بأنفسهم ، الذين قد خافوا على أعمالهم أن تبطل ، وخافوا على أنفسهم أن تتلف ، ولا ينبغي لعاقل أن يفتر عن مفاتشة همته ،

(١) سقطت من النسخة (ب) .

(٢) انظر السابق .

ومحاسبة نفسه ، ونقاء ضميره ، ومراقبة الله سبحانه وتعالى عند كل عمل يريد أن يعمله ، وإلا فهو مخدوع .

والله نسأل التوفيق والفهم ، والعزم الصحيح ، والإرادة الصادقة .

واعلم أن السهو والغفلة عن هذا العلم الذي به تصفو الأعمال جهل شديد ، واغترار ، وقلة عناية بالنفس ، وقلة مبالاة باطلاع الله تعالى على فساد العمل ، ومن بين هذه الخصال (١) المذمومة التي ذكرناها نتجت الهلكة .

ونحن نسأل الله سبحانه الرشاد والسداد ، والعون على القيام بما قد علمنا ، والشكر على ما قد فهمنا ، ونسأله أن يزيدنا من فضله ، إنا إليه راغبون ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

---

(١) في النسخة (ب) الصفات .

بسم الله الرحمن الرحيم

رسالة إلى من يطلب النجاة :

١٧٢ - يروى عن بعض الحكماء أنه قال :ـ

إذا ظن بك الناس أنك تعمل عملاً من الخير ولست تعمله ، أو كنت تعمل شيئًا [١] من الخير ، وظنوا أنك تعمل أكثر منه ، ورفضت أن يطلعوا على حقيقة عملك ، فأنت ممن يحب أن يحمد بما لم يفعل .

وإن أحببت أن يطلعوا [٢] عليه ، فأنت تحب أن تحمد بما قد فعلت .

١٧٣ - وقال : علامة حب الله : حب جميع ما أحب الله ، وعلامة الخوف من الله : ترك جميع ما كره الله ، وعلامة الحياء من الله ، ألا تنسى الورود على الله ، وأن تكون مراقبًا لله في جميع أمورك على قدر قرب الله تعالى منك ، واطلاعه عليك ، ومن علامة حسن الظن بالله : شدة الاجتهاد في طاعة الله .

وعلامة الناصح لله : شدة الإقبال على الله ، وفهم كتابه ، والعمل به ، واتباع سنن نبيه ﷺ ، وأن يحب أن يطاع فلا يعصى ، وأن يذكر فلا ينسى .

وعلامة النصح للناس : أن تحب لهم ما تحب لنفسك من طاعة الله تعالى ، وأن تكره لهم ما تكره لنفسك من معصية الله تعالى .

وعلامة الصبر : ألا تشكو من جميع المصائب إلى أحدٍ من المخلوقين شيئًا .

والصبر هو : الصبر على الطاعة ، والصبر عن المعصية ، والصبر على كتان

(١) في النسخة (ب) عملاً .

(٢) في النسخة (أ) يُطلع .

المصيبة ، وهو من كنوز البر ، والصبر على كتمان الطاعة ، والصبر : حبْس النفس عن ذلك كله .

ومن علامة الرضا عن الله : الرضا بقضاء الله ، وهو : سكون القلب إلى أحكام الله ، والتفويض إلى الله قبل الرضا ، والرضا بعد التفويض .

ومن علامة صدق الرجاء : شدة الطلب ، والجد والاجتهاد ليدرك ما رجا .

ومن علامة معرفة النفس : سوء الظن بها .

ومن علامة الشكر : معرفة النعمة بالقلب أنها من الله لا من غيره ، والحمد عليها باللسان ، وألا يستعان بها على شيءٍ مما يكره المنعم .

١٧٤ ـ قلت : فما تصديق معرفتي هذه ؟ .

قال : القيام بالمكافأة بها ، وإن كانت لا تكافىء ، ولكن إعطاء المجهود في شكرها .

ومن علامة معرفة الدنيا : الترك لها ، والزهد فيها ، والوحشة منها ، وممن ركن إليها ، وأحبها وآثرها وعظم قدرها .

ومن علامة معرفة الآخرة : هيجان الرغبة فيها ، وشدة الشوق إليها ، والأنس بكثرة ذكرها ، ومؤانسة من صدق في العمل لها .

ومن علامة العقل : حسن التدبير ، ووضع الأشياء مواضعها ، من القول والفعل ، وتصديق ذلك ، وإيثار الأكثر على الأقل .

ومن علامة العدل : ألا تجعل من الحكم حكمين ، فتحكم لنفسك بحكمٍ ، وللناس بآخر ، حتى يكون الحكم في نفسك ، وفي غيرها حكمًا واحدًا ، وإنصاف الناس من نفسك .

ومن علامة التواضع : ألا يدعوك أحد إلى حقٍ إلا قبلته ولم ترده ، ولا ترى أحدًا من المسلمين إلا رأيت نفسك دونه .

والناس يتفاضلون في المعرفة بالإيثار ، والرضا ، والشكر ، والحب ، والثقة ، والخوف ، واليقين ، والصبر ، وأدنى درجات : الصبر ، وأكثرها كلها : اليقين .

ومن علامة حسن الخلق : احتمال الأذى في ذات الله ، وكظم الغيظ ، وكثرة الموافقة لأهل الحق على الحق ، والمغفرة ، والتجافي عن الزلة .

ومن علامة سوء الخلق : كثرة الخلاف ، وقلة الاحتمال .

ومن علامة الألفة : قلة الخلاف ، وبذل المعروف .

وعلامة الصدق : إرادة الله وحده بالعمل والقول ، وترك التزين : وحب ثواب المخلوقين ، والصدق في المنطق .

وأطيب العيش : القناعة ، والعلم : خشية الله ، وهي إيثار الآخرة على الدنيا ، ومعرفة الطريق إلى الله ، وصلاح القلب : الرأفة والرقة ، وفساد القلب : القسوة والغلظة ، وألذ العيش : الأنس بالله ، والعزم [١] : اجتماع الهمة .

وأشر الشر الذي لا خير فيه ، ولا قوام لخير معه : الكبر ، وخير الخير الذي لا شر فيه : التواضع ، وهو : أن تضع نفسك دون الناس ، والكبر : أن ترفعها فوق الناس ، وما خير لعبدٍ آثر على التواضع شيئًا .

والحزم : الفرار من كل موضع فيه محنة .

والصبر : مخالفة المحبة ، ولا يصعب مع قوة الصبر شيء من العبادة حتى

---

(١) في النسخة (ب) والأنس .

ترتفع من درجة الصبر إلى درجة الخوف ، ثم من درجة الخوف إلى درجة المحبة .

وكما لا يطيب لعبد [أعطى شيء] [٢] من الدنيا إلا بالقنوع ، كذلك لا يطيب له عمل الآخرة إلا بالخوف ، والمحبة ، فإذا صار العبد إلى ذلك سقطت عنه مؤنة الصبر ، وتنعم بالخوف والشوق .

١٧٥ ـ قلت : فبأي شيء ينتقل من درجة الصبر إلى درجة النعيم ؟ .

قال : بحسن المعرفة .

١٧٦ ـ قلت : فما حسن المعرفة ؟ .

قال : افتقار القلب إلى الله ، واقترابه منه ، ومن دار الآخرة ، حتى كأنها رأى العين ، ويجعل الذنوب التي سلفت منه فيما بينه وبين الله نصب عينيه ، ويجعل النعمة التي قد أنعم الله عليه بها ، والتي لا يحصيها ، ولا يقدر على شكرها في إقرار قلبه بذلك ، وإجلال الله ، وتعظيمه وقدرته ، ووعيده ، وأهوال يوم القيامة ، وما قبله من البرزخ والموت .

فإذا استقر ذلك في قلبه ، وسكن القلب إلى ذلك كذلك ، أنار القلب وعمر بعد الخراب ، وأضاء بعد الظلمة ، ثم لانت المفاصل عند ذلك ، وتوثبت الجوارح إلى الطاعات ، فعند ذلك تسقط مؤنة الصبر ، ويصير في درجة الخوف ، والمحبة للعبادة ، وعند ذلك يجد حلاوة ما هو فيه ، فتلك العبادة بحسن المعرفة ، فلا يزال كذلك حتى يعرض له من دواعي الدنيا ، ووساوس النفس ، ما إن مال إليه قطعه عن تلك الحلاوة ، ورده إلى درجة الصبر .

ولساعة واحدة من تلك الساعات خير من أيام كثيرة من أيام الصبر ،

---

(٢) في النسخة (ب) شيء أعطيه .

لأن فيها الخوف ، وفيها الحب ، وفيها الشكر ، وفيها الندم ، وهو : التوبة ، وتعظيم ما عظم الله ، وتصغير الدنيا ، والأنس بالله ، فلا يلحق صاحب هذه الدرجة صاحب الصوم الكثير ، والصلاة الكثيرة ، والحج والغزو ، وهكذا العمل إذا كان بالمعرفة القوية .

١٧٧ ـ قلت : فأين المريدون عن هذه الدرجة ؟ لا يكون اهتمامهم وعنايتهم بها أكثر من عنايتهم بغيرها من الدرجات ؟ .

فقال : هذه الدرجة في الدرجات كالجوهرة في الأشياء ، واللؤلؤة الفائقة في ألف لؤلؤة ، والجنس واحد ، وإنما قلّ أهل هذه الدرجة وعزّوا ، لأن من الأشياء ما صعوبته في المسلك إليه ، فإذا صرت إليه صرت إلى سهولةٍ ، ورخاءٍ ، وأنسٍ ، ومن الأشياء ما سهولته وشهوته في طريقه ، وصعوبته وشدته في نفس ذلك الشيء إذا صرت إليه .

والعامة يعنون بالشيء الذي فيه السهولة ، فإذا صاروا إلى الشدة والمرارة كاعوا ، وتحيروا وخسروا ، وقد كانوا قبل ذلك يسارعون إليه لما فيه من السهولة .

أو لا تراهم كيف يطلبون العلم فإذا صاروا إلى استعمال العلم والورع لا ترى من يستعمله ، ولا من يريده إلا الواحد بعد الواحد ؟!

أو لا تراهم يتعلمون السير ، وفضائل الجهاد ، فإذا صاروا إلى شروط الجهاد لا ترى من يقوم بعمله ؟!

هذه الدرجة شديدة في الطريق إليها ، ولا ترى في طريقها إلا الواحد بعد الواحد من الكثير ، فلذلك قلّ أهل هذه الدرجة ، وكثر طلاب غيرها من الدرجات ، لأنها الدرجة التي استعبدت العباد ، وهي درجة الصدق ، وصار علمها مهجورًا ، وصار الناس إنما يريدون من العمل ما خف محمله ، وقلت فيه

مفاتشة الهمة ، ونقاء الضمير ، والتوقف ، ومحاسبة النفس ، ومخالفة الهوى ، ومجاهدة العدو .

واعلم أن رضا العبد بالحالة التي هو عليها مقيم ضعف ، وبلية نزلت به .

١٧٨ ـ وقال : المحب ينازع إلى القربة أبدًا ما عاش ، والخائف يتعرض للنجاة ، فلما استيقن بالرحيل صار مخادعًا لنفسه ، ومؤثرًا لما قدم على ما خلف .

ولا أعلم في الناس شيئًا أقل من الغضب لله ، والرضا لله ، والحب لله ، والبغض لله ، وأقل من ذلك : الرضا عن الله تعالى ، والتسليم لأمره ، وتفويض الأمور إلى الله .

وأكثر سلامة الناس من الشر بالصبر ، وأكثر طلبهم للخير بما وافق الهوى ، والإنسان في أكثر النعم مخالف الشكر ، وأقرب خصال الخير من الله أثقلها على العبد ، ولو قبلها بشكر كان أقربها إلى الله أحبها إليه ، فهذا العبد يرجو رحمة الله باليسير من البر ، كما يرجوه بالكثير من البر سواء ، ويخاف سخط الله باليسير من الذنوب ، كما يخاف سخطه بالكثير من الذنوب سواء ، ولا يكون حسن الرغبة في كثير الحسنات إلا كانت في القليل كذلك .

١٧٩ ـ وقال : إذا أردت أن تصلح من أمرك شيئًا فاشتد عليك ، فخل عن جميع أعمال البر من التطوع كلها ، واجعل شغلك كله فيه ، فإنك تعان عليه إن شاء الله .

معرفتهم بأنه مطلع في ضمائرهم ، وينظر إليهم في كل حركة تكون منهم ، وكل سكون ، وكل خطرة ، وكل طرفة عين ، وكل همة ، وكل إرادة ، وكل نية ، وكل محبة ، وكل شهوة .

وأما نحن فلم يهيجنا على عملنا التعظيم له ، ولم تهيجنا رغبتنا في عظيم

الثواب ، فنتقرب بحسن الفعال ، ولم تدعنا الرهبة من العقاب إلى ترك مساوىء الأعمال ، ولم يحل الحياء منه بيننا ، وبين قبيح الأعمال فيما بيننا .

فنسأل الله المنان الذي منَّ عليهم : أن يمن علينا بما منَّ به عليهم ، وأن يهب لنا مثل فعالهم ، فإنه فعال لما يريد .

وقال : الصدق عند العبد على قدر إرادته ، والشكر عنده على قدر موقع النعمة منه .

بسم الله الرحمن الرحيم

رسالة من عبدٍ صالحٍ لأخيه :

١٨٠ - يروى عن بعض الحكماء أنه كتب إلى أخٍ له :

سلامٌ عليك ، أما بعد ، فاذكر ما أنت عنه زائل ، وعليه قادم ، وإليه صائر ، كذكر من نظر فاعتبر ، وأخذ حذره فازدجر ، وتعوذ بالله من موت القلب عن شدة العناية للسداد والرشاد ، وحسن الاستعداد للمعاد .

فلو فكر العباد وعلموا أنهم لا يسعهم أن يَردوا على الله إلا بما له فيه رضا ، علموا أو جهلوا ، وألا يطلع الله على ضمائرهم فيرى فيها شيئًا مما يكره ، وأن يكونوا نادمين على ما كان منهم ، مما لم يكن فيه رضاه ، مما علموا أو جهلوا ، إذن لاجتهد من كان يخاف الله منهم بالغيب ، أن يكون مجهولهم معلومًا ، ومعلومهم معمولاً به ، وأن يكونوا نادمين على ما فاتهم من ذلك .

١٨١ - واعلم يا أخي أن الله سبحانه وتعالى جعل نجاة العباد برحمته في المعرفة ، ثم في الإرادة ، ثم في ترك ما أمرهم بتركه ، ثم في العمل بما أمرهم به ، ثم في شكر نعمه التي أنعم بها عليهم قديمًا وحديثًا ، ظاهرًا وباطنًا .

فأول ما أراد الله تعالى من العباد : أن يعرفوه من الوجوه التي تعرف إليهم منها ، فإنه قد تعرف إليهم من خلقه للخلق ، وتدبيره في الخلق ، ومن قدرته على الخلق ، وتكفله بأرزاق الخلق ، وإماتته الخلق ، وإحيائه الخلق ، ألا له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين [1] .

وأراد منهم بعد المعرفة : أن يريدوه بكل ما عملوا من أعمال البر ، ولا يروا غيره ، ولا يطلبون الثواب إلا منه ، فلو كان يمكن أن يكون قبل المعرفة شيء لكانت الإرادة قبل المعرفة ، ولو استغنى عن المعرفة بشيء

---

(١) في النسخة (ب) أحسن الخالقين .

لاستغنت الإرادة عن المعرفة .

فالمعرفة قبل كل شيءٍ ، وأصل كل شيءٍ ، ثم الإرادة ، وهي منها ، وهي : تحقيق الترك ، وتحقيق العمل ، والأخذ والإعطاء ، والحب والكره في الأعمال كلها ، وهي ولية عقد منافع أهل الأعمال في أعمالهم .

والشكر على قدر النعمة [١] ، فمفتاح النعم ، وأفضلها كلها وأولها ، هي نعمة المعرفة ، ولا أعلم بعد نعمة المعرفة أعظم قدرًا من نعمة العقل ، ونعمة الإرادة نعمة يعسر مبلغ شكرها .

وآخر النعم نعمة الخاتمة [٢] ، فنسأل الله خاتمة خير ، ونسأله أن يعرفنا جميع نعمه ، وأن يوزعنا الشكر على ذلك ، فقد ينال العبد بالمعرفة والإرادة من الخير والقرب من الله سبحانه وتعالى مالا يناله صاحب العمل الكثير .

وإنه ليس شيء أولى بالعبد بعد معرفة الله من معرفة ما يكره الله ، وهو الذي نهاه عنه ، وتقدم فيه الوعيد ، والزجر والتحذير ، ثم معرفة ما أحب الله ، وهو الذي أمر به ، ورغب فيه ، فأبلغ الأعمال إلى رضوان الله : مفارقة ما يكره الله ، ثم مباشرة ما يحب الله تعالى ، وما رغب فيه .

فانظر ياأخي ، إذا أصبحت فلا يكن شيء أهم إليك من أن تميت خصلة تهواها نفسك مما يكره الله تعالى ، فإنه يحيا لك مكانها خصلة مما يحب الله ، ولك بعد ذلك التضعيف من النور الساطع في قلبك ، والفهم ، والحكمة .

١٨٢ ـ واعلم ياأخي أن الدنيا منها حلالٌ مباح ، ومنها شبهات ، ومنها حرام .

فإذا كان في قلب العبد عقدة متمكنة من حب الحلال المباح ، لم تنقطع

(١) في النسخة (ب) المعرفة .

(٢) في النسخة (ب) الحكمة .

عنه مواد نوازع الشبهات والمكروهات .

وإذا كان في قلبه عقدة متمكنة من عقد حب الشبهات ، والمكروهات ، لم تنقطع عنه مواد نوازع الحرام ، فقد جاء عن النبي ﷺ أنه قال : « من وقع في الشبهات فأوشك أن يواقع الحرام ، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه » (١) .

فكل من تمكنت الشبهات من قلبه ، واطمأن إلى أخذها ، وقع في الحرام ، لأن الشبهات أقرب إلى الحرام منها إلى الحلال .

١٨٣ ـ قلت : فكيف يصنع الناس في معايشهم (٢) بمرافقهم وحوائجهم ؟ .

فقال : إني لم أنهك عن كسبك وحوائجك ، وما تحتاج إليه منها ، وإنما أحذرك أخذ ما لا تحتاج إليه منها ، ونهيتك عن اعتقاد الحب لما تحتاج إليه منها ، حتى تكون تأخذها من المباح وهي راغمة ، وأنت عالم بها ، وبصغر قدرها عند خالقها ، إذ يقول لنبيه ﷺ :-

﴿ **قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى** ﴾ (٣) .

١٨٤ ـ وإذ يقول نبيه ﷺ : « لو عدلت الدنيا عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء » (٤) .

١٨٥ ـ واعلم أن المعتقد لحبها وهو عالم بها لا يؤمن عليه أن تستولي على قلبه ، فتملكه ، فيأخذ بعد الحلال الشبهات ، وبعد الشبهات الحرام .

---

(١) **حديث صحيح** . أخرجه البخاري (٥٢) ، (٢٠٥١) ، ومسلم (١٥٩٩) ، وأبو داود (٣٣٢٩) ، والترمذي (١٢٠٥) ، والنسائي (٧ / ٢٤٢) ، وابن ماجه (٣٩٨٤) ، وأحمد (٤ / ٢٦٧) .

(٢) سقطت من النسخة (ب) ، وهي في(أ) .

(٣) سورة النساء : ٧٦ .

(٤) **حديث صحيح** . أخرجه الترمذي (٢٤٢٢) ، وابن ماجه (٤١١٠) ، وأبو نعيم (٣ / ٢٥٣) في الحلية ، والحاكم (٤ / ٣٠٦) ، والطبراني (٥٩٢١) في الكبير ، وغيرهم .

١٨٦ ـ واعلم أن المعتقد للحب ، وغير المعتقد يأتيان على حاجتها ، واعتقاد حب الدنيا من الحلال ، وهي في قلوب العارفين ، ولا يزيد ذلك في رزق المعتقد ، ولا ينقص من رزق الذي لا يعتقد المحبة .

١٨٧ ـ واعلم أن العباد إنما أمروا بالاشتغال بالعلم من الجهل ، وبالعمل بالإخلاص ، ولاتنال هذه الدرجة حتى تكون بحالة لو قدرت أن تترك ما تحتاج إليه منها لتركته .

وأما الشبهة الأخرى التي يكرهها الله سبحانه وتعالى ، فطمعك في القدر ، والجاه ، والثناء عند المخلوقين ، وخوفك من سقوط منزلتك عند المخلوقين ، وذلك مما يسقط منزلتك عند الله عز وجل .

فأهل المعرفة بالله ، وأهل الإرادة ، يكرهون أن يراهم الله سبحانه ، وقد اعتقدوا من ذلك شيئًا ، حملتهم المعرفة بالإجلال لله ، وإيثار محبته على ألا ينظر إليهم سيدهم ، وفيهم شيء مما يكرهه في مبلغ علمهم ، فهم يكرهون ما يكره الله في غيرهم ، فكيف يرضون به في أنفسهم ؟ .

أبت معرفة الله أن يساكنها شيء من مكاره الله ، وأبت الإرادة أن تشتغل بغير ما أحب الله .

قد شغلتهم المعرفة بالفكر في كثرة نعم الله عز وجل عليهم ، وعجزهم عن أداء شكرها ، مع عجزهم عن إحصاء عددها ، وباستكثار ذنوبهم ، وكثرة ذكرهم مسألة إياها : الحياء من الله ، والخوف منه ، ومصيبتهم في أنفسهم مما يخافون من فوت رضوان الله عنهم ، وسخطه عليهم ، أعظم في أنفسهم ، وأوجع لقلوبهم من فوت الجنة ، وخوف النار ، ومن الذي يجدون مما يلقي إليهم الشيطان من الخطرات ، وعوارض الدنيا ، وحب التزين لأهلها عند عبادتهم وطاعتهم ، وكثرة فساد النية ، والآفات التي تعارضها ، فهم بذلك مغمومون مكروبون ، مخافة أن يراهم الله ، وقد تزينوا لأحد غيره .

فلا تكن يا أخي بشيء أغنى منك بـالمعرفـة والإرادة ، فـإن الخير كلـه تبع لها ، وهما علامة نظر الله لعبده ، وبالله التوفيق .

١٨٨ ـ ثم أوصيك يا أخي بعد بمراقبة [١] الله عند همتك إذا هممت ، وعند كل حركة تكون منك ، وكل سكون : أن تستمع من الله ، وتعقل عنـه ، فـإنَّ في هذا القرآن الذي أنزل علينا تبيان كل شيء ، وعلم كل شيء .

فعليك بتدبره ، وتأمله في الليل والنهار ، وأعمل نفسك في فهمه ، والعمل به ،أو لا تستمع [٢] إلى قوله تعالى :ـ

﴿ وما تكون في شأن وما تتلوا منـه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودًا إذ تفيضون فيـه ومـا يعزب عن ربـك من مثقـال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ﴾ [٣] .

فلا تغفل عن مراقبة من لا يعزب عنه أصغر من مثقال ذرة ، ولا تشبع ، ولا تمل منهـا ، فـإنـه تعـالى لا يغفل عنـك [٤] ، ينظر إليـك ، ويطلـع على ضميرك ، ويحصي عليك مثاقيل الذر ، وموازين الخردل ، حتى يجزيك بـذلـك أو لا تسمـع إلى قـولـه [٥] : **﴿ إن الله لا يظلم مثقـال ذرة وإن تـك حسنـة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرًا عظيمًا ﴾** [٦] .

١٨٩ ـ واعلم ياأخي أنه لا يكاد يحسن الشيء إلا بشيء قبله ، وشيء بعده.

---

(١) في النسخة (ب) مراقبة .

(٢) في النسخة (ب) تسمع .

(٣) سورة يونس : ٦١ .

(٤) في النسخة (ب) عنها .

(٥) في النسخة (ب) قول الله .

(٦) سورة النساء : ٣٩ .

فأما ما بـه تحسن المراقبـة قبلهـا : فـالانقطـاع إلى الله ، ولزوم طـاعتـه ، بالمراقبة له في السر ، وفي العلانية .

وأما ما به يحسن الانقطاع إلى الله قبل الانقطاع فأربعة أشياء : التوبـة ، وإيثار ما يحب الله على ما يكره ، وأن تكون به أنس منك بخلقه ، ولا تفرح بما زادك من الدنيا ، ولا تحزن على ما نقصك منها ، وهي درجة الورع والقنوع والذي يقويك على ذلك : التصديق بوعد الله تعالى ، والثقة بضمانه ، والترجي بما يكفيك منها ، ولزوم سرعة الانتقال عن الدنيا .

وأما إيثار ما يحب الله على ما يكره ، فسبحانه ليس أحدٌ أحق ، ولا أولى بذلك منه ، تبارك اسمه ، وهو إيثار محبته على هواك ، وهو فرض على المدبرين عنه ، والأبّاق ، أن يرجعوا إليه ، ويعاملوه ، وكيف لا يؤثره من أراد [(١)] القرب منه ، والانقطاع إليه ؟ .

أما الأنس به فهو : أن تكون به أشد أنسًا منك بخلقه ، فمن عرفه ، وعرف لطفه ، وكثرة أياديه ، وتواتر نعمه [(٢)] ، وبره وعطفه ، وتفضله ، أنس به .

وكيف يراقب العبد من لا يعرفه ؟ أو كيف ينقطع إلى من لا يثق به ، ولا يأنس به ؟ .

وأما الذي يحسن الشيء بعده فالشكر ، وأشهد أنك لو عقلت ما تقرأ ، وكنت مريدًا لهذه المنزلة ، لنظرت إليه بعين الخائفين المحزونين ، ألا يقبلك ، وأن يستقذر إرادتك وسيرتك ، وأن يطردك عن بابه ، وأن تقدم عليه وأنت كذلك .

---

(١) في النسخة (ب) تعود .

(٢) في النسخة (ب) حكمه .

١٩٠ ـ واستعن في أمرك كله بالاعتبار ، فإن الأمر لا يزال مستورًا منك ، أو غائبًا عنك ، فإذا نظرت إليه نظر المعتبر كاد أن يقوم لك الاعتبار مقام المخبر ، المعاين لما قد غاب عنك ، ومقام الكاشف لك عن المستور عنك ، حتى تنظر إلى زين الأمور وشينها ، وحسنها وقبيحها ، وتعرف من أين صار الحسن حسنًا ، والقبيح قبيحًا ، فتتبع من ذلك ما فيه نجاتك ، وتجتنب ما فيه هلكتك ، وتعرف الناس بالاعتبار على بنازلهم في لحن القول ، ولحن الفعل ، وتعرفهم وتعرف منازلهم ، ومذاهبهم بنور الاعتبار ، ومواهب الإلهام إن شاء الله تعالى .

من وصايا الصالحين : ـ

١٩١ ـ وعليك ياأخي بالاقتصاد والحزم في أمورك كلها ، فإن الاقتصاد أرجا للثبات ، وأسلم من الآفات ، والحزم ينفع أهله عند الشدة ، ولا يضرهم عند الرخاء .

فاستكثر من المعرفة ما قدرت ، فليست المعرفة كالعمل ، للعمل حد ينتهي إليه ، وليس للمعرفة حد تنتهي إليه ، لأنك تريد بالمعرفة استكمال أمر الله ، وإقامة حقه ، ولا يبلغ ذلك أحد ، لأنه سبحانه وتعالى أجل ، وأعظم من أن يبلغ الآدميون كنه حقه غير أنهم يتباينون فيه بزيادة المعرفة ونقصانها مع المعرفة والأنس ، والروح والفرح ، والراحة ، لزيادتها نعمة من الله ، ونقصانها عقوبة من الله بذنب ، أو تضييع شكر .

واحذر ما يكره الله من عملك ونيتك ، وسرك وعلانيتك في الصغير ، كما تحذره في الكبير ، وإن كل شيء يفسد عليك مثقال ذرة قدمته لله يفسد عليك مائة ألف دينار ، والدنيا كلها مثل ما أفسد عليك مثقال ذرة ، فسادًا سواء ، لا فضل بينهما ، ثم هكذا في سائر الأعمال ، يأتي الفساد على كثرتها كما

يأتي على قلتها سواء .

١٩٢ ـ وارغب في الصغير من الخير ، كما ترغب في الكبير ، رغبة واحدة ، لأنه يقبل القليل من العبد كما يقبل الكثير قبولاً واحدًا سواء ، وهكذا في سائر الأعمال ، وكفى بقبول الله الصغير من عبده لعبده فوزًا ، مع أن أعمال بني آدم كلها صغارًا ، إلا ما قبل الله منها ، فإذا قبل منها شيئًا صار عظيمًا ، وإن كان قبل ذلك صغيرًا .

١٩٣ ـ واعلم أن صغارها أسلم[١] لك من كبارها في الرياء ، والإعجاب ، والامتنان ، فانتبه لذلك ، ولا تغفل عنه .

١٩٤ ـ واعلم أن لك في عملك إرادة وأملاً ، فانظر إرادتك في أعمالك ، كإرادة أهل الشكر والرضا ، وأملك فيه كأمل المسرفين على أنفسهم ، فليس شيء أحب إلى أهل الرضا من شيء يرضى الله به ، ولا شيء أحب إلى أهل الشكر من شيء يشكرون الله تعالى عليه ، ولا شيء أولى بأهل الإسراف على أنفسهم من شيء يرجون به عفو الله .

١٩٥ ـ واعلم يا أخي أني لست من قلة العمل أخاف عليك وعلى مثلك ، ولكن أخاف عليك من قلة المعرفة ، وضعف الإرادة ، لا أجدني أخاف عليك ، وعلى مثلك من قلة التطوع ، ولست أخاف من الورع ألا تنظر فيه كما ينظر غيرك ، أو لا تترك شهوات أحلها الله لك ، وتؤثر بها عليك غيرك ، إلا إن الذي أخافه عليك : أن تنازع في أمر يكرهه الله ولا ينفعك ، قد خفي عن الناس ، وهو عند الله ظاهر ، فيفسد عليك جميع ما أردت ، أو ترى لك فضلاً على غيرك فيحبط ذلك جميع ما كنت فيه .

وأخاف عليك ألا تقوم بصيانتها كما قمت بالعمل بها ، فيهدم ذلك جميع

---

(١) زيادة من النسخة (أ) ليست في (ب) .

ما كنت فيه ، وما بنيت عليه ،أو لا تؤدي ما يجب عليـك من الشكر فيهـا ، فيلزمك من الذم في كفران النعم أكثر مما رجوت من الحمد فيها .

أو تكون تدل على الله عز وجل بعملك ، فيسقطك ذلك من عين الله .

أو تمنّ به على أحد ، أو تؤذي بسببـه أحـدًا ، فقـد علمت مـا قـال الله عز وجل في ذلك :

﴿ يأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق مالـه رئـاء النـاس ولا يؤمن بـالله واليوم الآخر فمثلـه كمثل صفـوان عليـه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا ﴾ [1] .

وربما يعزم على العمل الذي أراده فلا يجده كما وجده بغير عزم عليه .

بدء النفس ونهايتها :

١٩٦ ـ قلت : ما بال الرجل يأتيـه الأمر ممـا يحب من غير طلب ولا عزم عليه ، حتى ربما أخاف من عزمه أن يكون عليه أكثر مما يكون له ؟ .

قال : هذا من الذي قلنا : لا يصلح الشيء إلا بشيءٍ قبله ، وشيء بعـده ، فإذا لم يكن عزم بمعرفة كان عاقبته نحو الذي ذكرت .

ومعرفته : أن يكون بدؤه بالافتقار إلى الله سبحـانـه وتعـالى ، ولا يكون كالتّألّي على الله .

والتـوكل : أن ينفرد بـإشعـار قلبـه في تفـويض المقـدرة إلى الله سبحـانـه وتعالى ، والتبري من الحول والقوة ، أو لا تسمع لقوله تعالى :

---

(١) سورة البقرة : ٢٦٤ .

﴿ **ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدًا إلا أن يشاء الله** ﴾ (١) .

فهذه زيادة على التوكل أمر ، أمرك الله به ، وقوله تعالى :ـ

﴿ **وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله** ﴾(٢) .

والمشورة من الحاجة لا من الغنى ، أمر الله نبيه ﷺ أن يستعين بمن ليس هو مثله ، وأن تبقى سنته سنة لمن بعده .

فكيف بمن هو مثلي ومثلك إذا سها عن الله فيا لا يسعه إلا التضرع إليه ؟ .

أو لا تسمع لقوله عز وجل في قصة يعقوب : ﴿ **إن الحكم إلا لله عليه توكلت** ﴾ (٣) فكان عاقبة يعقوب تمام ما أراد .

١٩٧ ـ وقول يوسف في القرآن : ﴿ **قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن** ﴾ (٤) .

وتم له أمره حين أخرج نفسه من القدرة ، وأقر بالافتقار ، وفوض الأمر فيه إلى ربه .

١٩٨ ـ وقول الآخرين في القرآن : ﴿ **لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين** ﴾(٥) .

---

(١) سورةالكهف : ٢٣ .

(٢) سورة آل عمران : ١٥٩ .

(٣) سورة يوسف : ٦٧ .

(٤) سورة يوسف : ٣٣ ـ ٣٥ .

(٥) سورة يونس : ٢٢ .

فسألوه ولم يفوضوا إليه أمرهم ، لا قبل المسألة ولا بعدها ، قال :ـ

﴿ **فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق** ﴾ (١) .

١٩٩ ـ وقول الآخر أيضًا في القرآن : ﴿ **لئن آتيتنا صالحًا لنكونن من الشاكرين فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما** ﴾ (٢) .

ثم انظر إلى قول آدم حين قدم على حمل الأمانة بغير افتقار ولا استكانة ، فلم يتم له أمره ، وعير بالجهل والظلم .

وماذا يغني العزم عن الذي ليس بيده الأمر ؟ .

درر غاليات وكلمات نافعات :

٢٠٠ ـ قال : ومن لا يكون عالمًا بما ورد عليه من الله يوشك ألا يكون عالمًا بما ورد على الله تعالى منه .

٢٠١ ـ واعلم يا أخي أنه من أطاع الله ولم يخفه فقد أطاعه في العمل ، وعصاه في ترك الخوف ، فكيف بمن يعصيه ولا يخافه ؟

٢٠٢ ـ وقال : لو أنك لم تأخذ من الدنيا إلا قوتك ، غير أنك لم ترد الله به ، قطع بك ، ولو تركت قوتك من الدنيا ولم ترد الله به ، قطع بك .

٢٠٣ ـ وقال : لو عقلت عن الله أمرين : لنظرت إليه بعظيم الشكر له ، حيث لم يجعل دعاءه إلى الجنة في ترك ما تحتاج إليه في الدنيا ، ولم يجعل دعاءه إلى النار في حاجتك منها .

٢٠٤ ـ وقال : اعرف النعمة تكن من أهلها ، فإن البهيمة لا تجد رائحة المسك ، وإن حشي به منخراها .

---

(١) سورة يونس : ٢٣ .

(٢) سورة الأعراف : ١٨٨ ـ ١٨٩ .

٢٠٥ ـ وقال : كن من أبناء الحق ؛ يحبك الحق .

٢٠٦ ـ وقال : اجعل نفسك تابعًا في طريق الهدى ، ولا تجعلها قائدًا إلى طريق الهوى .

٢٠٧ ـ وقال : احذر شهوة لا تبقى ، وندامة لا تفنى .

٢٠٨ ـ وقال : أنيسك اليوم هو أنيسك غدًا في قبرك ، وعملك اليوم هو عملك غدًا ، فانظر من أنيسك ، وما عملك ؟ .

٢٠٩ ـ وقال : ما ترك الحق لأهله سرورًا ، ولا أبقى الباطل لأهله من الآخرة نصيبًا .

٢١٠ ـ وقال : احفظ الله عند هواك ، يحفظك عند لقاك .

٢١١ ـ وقال : تعوَّذ بالله من عمل ظاهره طاعة ، وباطنه معصية .

٢١٢ ـ وقال : من علم ما بين يديه ، هان عليه ما في يديه .

٢١٣ ـ وقال : إذا كملت معرفة الرجل بالدنيا تعجب من أبنائها ، وإذا عمي عن معرفة الآخرة تعجب من أبنائها .

٢١٤ ـ وقال : وقال : من عرف الدنيا قاطعها ، ومن لم يعرفها انقطع إليها ، ومن عرف الآخرة انقطع إليها ، ومن لم يعرفها قاطعها .

٢١٥ ـ وقال : أقل الشهوات لك نفعًا في الدنيا أضرها عليك في الآخرة ، وأقل شهوات الآخرة مؤنة عليك في الدنيا أردها عليك نفعًا في الآخرة .

٢١٦ ـ [وقال : اعبد الله بإرادتك ونيتك قبل أن تجيء بعملك ، فعلى قدر ما أراد الله العبد في الدنيا للآخرة يستحق الذي في الآخرة][1] .

---

(١) ما بين المعكوفتين سقط من النسخة (ب) .

٢١٧ ـ وقال : ما أيسر الأمر على من احتسب بنفسه عن منافسة أهل العز في عزهم ، فقد هدي إلى المرتقى الذي ارتقى منه المحبون لقرب الله عز وجل .

٢١٨ ـ وقال : اختيار العبد للعبودية شفاء ، وبرد على الفؤاد ، وجلاء للبصر .

٢١٩ ـ وقال : طلب العبد للحرية بلاء وداء [١] يغشى منه البصر .

٢٢٠ ـ وقال : العامل الناظر عمله على المحبة ، والعامل السامع غير الناظر عمله على الاستثقال ، فاعمل عمل من سمع ففهم ، ونظر فأبصر ، ولا تعمل عمل من سمع ولم ينظر .

٢٢١ ـ وقال : رب نعمة تصير عقوبة ونقمة ، ورب عقوبة تصير نعمة .

٢٢٢ ـ وقال : إذا أردت أن تحب شيئًا فأكثر ذكره ، فإن الذكر والنسيان لا يجتمعان .

٢٢٣ ـ وقال : الحسنة الصادقة المشكورة يثاب عليها صاحبها في الآخرة ، ويزداد منها في الدنيا يزاد للشكر ، ويثاب للصدق .

٢٢٤ ـ وقال : من أنفع العبادة أن يعامل العبد نفسه باستصغار الدنيا عندها .

٢٢٥ ـ ومن أحسن العبادة : أن يمتلىء قلب العبد من حب الطاعة ، ويفيض [٢] فإذا فاض عملت الجوارح على قدر ما رأت من القلب ، فربما كانت الجوارح في العبادة والقلب في البطالة .

٢٢٦ ـ قلت : وكيف عبادة القلب دون الجوارح ؟ وكيف يفيض القلب

---

(١) سقط من النسخة (ب) ، وهو في (أ) .

(٢) زيادة من النسخة (أ) ، ليست في (ب) .

بالعبادة إلى الجوارح ؟ .

قال : أن يصير وعاء للهم والحزن ، والافتقار والخوف ، والندامة والتواضع والاضطرار إلى الله عز وجل ، والنصح له وحب ما يحب الله ، وبغض ما يبغض الله ، فإذا عامل الله على هذا بقلبه ، هاجت الجوارح بمثل ما رأت من القلب ، فانبعث على الطاعة ، وإنما يكون ذلك من القلب إذا خالط سويداءه ما تأتي به القيامة .

والباب الآخر : أن يمتلىء قلبه من معرفة نعم الله عز وجل ، وسروره بالله ، وأنسه بعبادة الله ، وشوقه إلى محاب الله ، وحبه للشكر لله ، ورجائه مغفرة الله .

فإذا عامل الله بهذا من قلبه ، اشتاق إلى عبادة الجوارح معه ، فيكون عاملاً ، وفي عمل أنس ، وسرور ، وحلاوة .

٢٢٧ ـ قال : ومن أشرف العبادة أن تراقب الله بما يحب الله ، فإذا فترت عن ذلك راقبه فيما يكره ، ملتمسًا العود إلى الحالة الأولى التي كنت عليها ، حريصًا على ذلك ، فيحدث لك حينئذ إليها حنين شديد ، فإنه إذا رآك كذلك تحن وتحرص ، رد عليك ما سلبك .

٢٢٨ ـ قال : وفي هذه المسألة والتي قبلها ، وفي جميع الأعمال ، على العامل أن يعقل ما على القلب ، وما على الجوارح ، فيبدأ بما على القلب ، ثم بما على الجوارح ، فإن القلب هو الأصل ، والجوارح أغصان ، ولا تقوم الأغصان إلا بالأصل .

٢٢٩ ـ قال : ومن أحسن الأخلاق أن تكون سجية العبد : التواضع : ومن أحسن الفعال الإحسان إلى من أساء إليك .

٢٣٠ ـ وقال : اجتهد ولا تيأس ، ولا تقل عند ذكر الصالحين : لولا

ذنوبي لرجوت طريقة الصالحين ، فيُفتّرك ذكر ذنوبك عن العمل ، فإن صاحب الحمل الثقيل أولى أن يجتهد في إسقاط ما قد حمل من المخف الذي ليس على ظهره شيء .

٢٣١ ـ وقال : إن أردت أن ينظر الله إليك بالرحمة ، فانظر أنت إلى الصالحين بالغبطة ، وإلى العاصين بالرأفة .

٢٣٢ ـ وقال : إذا وقع في قلب العبد الاهتمام بالنفس اشتد خوفه عليها ، وعظم رجاؤه للناس ، وإذا خلا قلبه من هم نفسه ، حسن ظنه بها ، وعظم رجاؤه لها ، وخاف على الناس .

٢٣٣ ـ وقال : من طالت فكرته في أربعة أشياء أورثته الحزن ، والهم ، وهي تؤدي بعضها إلى بعضٍ ، وكل خصلة منها كافية : إذا فكرت في علم الله فيك ، وأين اسمك في أم الكتاب ، وبماذا يختم لك ، وذكرت ذنوبك .

٢٣٤ ـ وقال : من طالت فكرته في أربعة أشياء أورثته الخوف والخشية ، وهي تؤدي بعضها إلى بعضٍ ، وكل واحدة منها كافية ، من فكر في الموت ، وسرعة انقضاء الأجل ، والمصير إلى القبر ، والوقوف للحساب ، والنار التي لا صبر لأحدٍ عليها .

٢٣٥ ـ وقال : لا تنازع الله في محبته ، فتكون قد عاملته بالغلبة .

٢٣٦ ـ وقال : لا تؤثر على الله أحدًا ، فيكلك إلى من آثرته عليه .

٢٣٧ ـ وقال : إلى متى تعد الشغل عونًا ؟!

٢٣٨ ـ وقال : إن لم تترك ما يرديك ، أقبل عليك من يغويك .

٢٣٩ ـ وقال : إذا أردت أن تقسم صدقة أو معروفًا في الناس ، أو في سواك قريب منك ، فإنما تبدأ أقربهم منك منزلاً ، وأشدهم إلى صدقتك فقرًا ،

ثم الذي يليه ، ولم تذكر بصدقتك من بعد عنك ، أو استغنى عن صدقتك .

فقرب يا أخي منزلتك من الله ، واكشف له عن فقرك إليه ، ينلك معروفه في أوائل (١) من ينال ، فافهم يا أخي إن كنت تفهم .

٢٤٠ ـ وقال : لو كان لك عبيد أردت عتق بعضهم ، أليس إنما كنت تبدأ بأعدلهم سيرة ، وأنصحهم لك وأخدمهم ؟ .

٢٤١ ـ وقال : إنك إن لم تترك ما يكرهه الله لم يذكرك فيمن يحبه .

٢٤٢ ـ وقال : ابذل لله ما أغناك عنه ، يبذل لك لا غنى بك عنه .

٢٤٣ ـ وقال : من كان يحب القرب من الله ، فليترك ما يباعد من الله تعالى .

٢٤٤ ـ وقال : اجعل بصرك بين يديك ، فإن الذي وراءك قد جزته .

٢٤٥ ـ وقال : إنك لو رأيت من باع نصيبه من الآخرة بنصيب غيره من الدنيا ، لعجبت منه ، فبع أنت نصيب غيرك من الدنيا بنصيبك من الجنة ، فإن الذي يبقي منك إنما هو رزق غيرك .

٢٤٦ ـ وقال لا تطلب المحمدة ممن يموت ، فتلزمك (٢) المذمة ممن لا يموت.

٢٤٧ ـ وقال : اترك خوف الدنيا ، تأمن الآخرة ، واطلب أمن الآخرة بخوف الدنيا .

٢٤٨ ـ وقال : إذا عرضت لك شهوة فاذكر العاقبة ، فكم من شهوةٍ ذهبت عنك لذتها ، وبقيت عليك حسرتها .

---

(١) في النسخة (ب) أول .

(١) في النسخة (ب) فتلحقك .

٢٤٩ ـ وقال : إن الذي يفسد عليك الآخرة هو الذي لا يحتاج إليه في الدنيا ، فما راحتك إليه ؟ .

٢٥٠ ـ وقال : لو رأيت رجلاً بين جماعةٍ ، وكل واحدٍ يكيده بألوان المكايد ، ثم لم تره يتضرع ويستكين ، وينقطع إلى من يرجو نجاته ، لسفَّهت رأيه وعقله ، فلا تكونن أنت هو .

٢٥١ ـ وقال : ما وجد أحد من صاحبه رائحة أطيب من رائحة حسن الخلق .

٢٥٢ ـ وقال : إن لك في خصال ثلاث شغلاً عما سواها : في مراقبتك ربك ، ومحاسبتك نفسك ، ومذكراتك ذنبك .

٢٥٣ ـ وقال : اصرف عنك عوارض الشهوات بالحزن ، والندامة على الشهوات الماضية ، التي قد انقضت عنك لذتها ، وبقيت عليك تبعاتها ، وألق عن قلبك الهم ، تصديقا بوعد الله تعالى ، وألزم قلبك الخوف ، حذر الوعيد لله تعالى ، وتواضع له افتقارًا إلى رحمته ، واستصغارًا لنفسك عند ذكر عظمته ، وانف عنك التزين للناس ، إيثارًا منك[١] لمحبته ، واستوجب اسم الشكر له على إحسانه إليك بالمحبة منك لعبادته ، واستوجب اسم الخوف منه بالكراهة منك لمعاصيه ، واستوجب نعمة معرفته بحبك لمراقبته ، واستوجب اسم الحب لمراقبته بالأنس به دون خلقه .

٢٥٤ ـ وقال : إن للناس منازل ودرجات ، فمن نظر بعيني قلبه أبصر درجاتهم ومنازلهم في طريق الآخرة ، كما أبصر بعيني رأسه منازل ودرجات أهل الدنيا .

---

(١) سقطت من النسخة (ب) .

ولا يستحق أحد منزلة من منازل الدنيا والآخرة بمعرفة قلبه ، ولا بذكر لسانه ، ولكن بعمل أهلها ، والقيام بشروطها ، وكما لا ينفع الفقير معرفته بيسار الموسر ، وما يملك من النعيم ، وألوان الأطعمة والأفرشة واللباس ، كذلك لا تنفعك معرفتك بأعمال الصالحين ، وأنت غير عامل بمثل عملهم ، بل هو حجة عليك ، والله نسأل التوفيق برحمته .

امتحان النفس في الصدق :

بسم الله الرحمن الرحيم

٢٥٥ ـ يروى عن حكيمٍ أنه سئل عن امتحان النفس في الصدق ، حتى يعلم العبد أصادقة هي أم غير صادقة ، فقال :

إذا علم العبد أن أحسد حاسدٍ له ، وأعدى عدوٍ له ، نال بعلمه ثناء و جاهًا في الناس ، ويكون مستورًا على الناس عمله ، ويلزمه هو بعمله الخالص رياء عند الناس ، وسقوط منزلته عندهم ، فإن سخت نفسه بذلك ، وأحبت إنفاذ العمل ، فهو علامة الصدق ، حتى يرد على أذنيه من ذم الناس له ، وإقامة جاه حاسده وعدوه ما يعلم بطلانه .

فإن لم تُحدث النفس عند ذلك خواطر الندامة ، ومضت على محبتها للعمل ، فبارك الله فيها ، وهو والله الصدق بعينه ، وهو عامل لله حقًا ، وعمله لما بعد الموت مخلصًا .

٢٥٦ ـ أخبرني عن قول الناس : شكر النعمة معرفتها ؟ .

قال : شكرها : معرفتها على قدر موقعها من قلبه ، بتعظيمها وتعظيم إحسان المنعم عليه بها ، ولا يكون معظمًا لها حتى يكون راغبًا فيها ، ولا يكون راغبًا فيها حتى يعرف حاجته إليها ، ولا يعقل حاجته إليها

إلا بتدبر عواقب الأمور ، وسرعة المصير إليها ، وشدة حاجته إلى ما يقدم عليه .

فعند ذلك تعظم النعمة عنده من المنعم عليه بها ، ويعرف امتنانه ، وإحسانه إليه فيها ، فعند ذلك يشتهي الزيادة منها ، وإذا علم الله تبارك وتعالى ذلك منه زاده منها .

٢٥٧ ـ وفي الجملة : إنه من رزق شيئًا يرجو به مرضاة ربه ، والنجاة من النار ، عظم في عينه ، وتشوق القلب إلى المعطي ، ولا يكون شاكرًا لنعم الدنيا كلها حتى يكون شاكرًا لنعم الآخرة ، ولا لما تحب نفسه حتى يكون شاكرًا لما يحب الله [ولا يكون شاكرًا لله حتى يكون شاكرًا للناس] (١) ، ولا يكون شاكرًا للناس ، وليس بشاكر لله .

٢٥٨ ـ وقال : من علم أنه لا يملك من أمر نفسه إلا كما كان يملك قبل أن يولد ، وكما يملك بعد أن يموت ، فقد أنزل نفسه منزلة الضعف والفقر في التواضع والاستكانة ، ومن لم ينزل نفسه ذلك المنزل ، ولم يعلم أن ذلك كذلك علمًا يقينًا ، فقد استحق طريقة الجاهلين ، واستوجب عقوبة المستدرجين .

٢٥٩ ـ وقال : إذا حملت وعاء من أوعية الشر ، فإنك ترتعد خوفًا أن يبدو للناس شيء مما فيه من الشر ، فمتى يصلح ما بينك وبين الله ؟ . هيهات .

اذكر الموت كالعبد السوء الذي لا يستحي من مولاه ، ولا يرجع عن مساويه ولا يعرف إحسانه إليه إلا عند الحساب والعقاب ، واذكر الموت وما بعد الموت .

٢٦٠ ـ وقال : ما ظنك بما يكره أن يطلع الناس منه على ما يكره الله ،

(١) ما بين المعكوفتين سقط من النسخة (ب) .

ولا يستحيي أن يطلع الله منه على ما يكره .

سوءة لمن كان هكذا ، وعجبًا لـه !!! حيث يترك ، ويضيع الفرص ، ويركب من الأشيـاء مـا كره الله ، ثم يتقرب إلى الله بمـا لم يفرضـه عليـه ، ويتعـاطى النوافل ، من الحج والعمرة [١] ، ويـأمر وينهى ، ويـدعو النـاس بـزعمـه إلى الله ، ويأبق منه ، ويأمر ولا يعمل ، وينهي ولا ينتهي .

أترى من كان هكذا عرف الله ؟ أو أيقن [٢] بنظره إليه ؟ أو صدق في أن عند الله ثوابًا للمطيعين ، وعقابًا للعاصين ؟ .

سوءة لمن كان هكذا .

أسئلة محيرة وأجوبة شافية :

٢٦١ ـ قلت : أخبرني عن قـول القـائـل : التـواضـع هـو : أن تكـون إذا خرجت من بيتك فكل من استقبلـك رأيت أن لـه عليـك الفضل ، فـإذا كان الرجل يدعى هذا ، ويقربه بلسانـه ، غير أنـه إذا صـار إلى احتمال شروطـه ، ومحنه لم يتحملها إلا بالكره من نفسه ، أيكون هذا متواضعًا ؟

٢٦٢ ـ قـال إذا كانت تلـك الشروط من الحقـوق الـواجبـة فلم يقبلهـا إلا بالكره من نفسه ، فلم يبلغ هذا درجة الصادقين .

وإن كانت شروطًا دون الحقوق الواجبـة ، ممـا لا يخرج العبـد ترك قبولهـا من أحـــدٍ ، وكان طيب النفس [٣] بقبــول الــواجب منهـــا ، فهـــو طريـــق المتواضعين ، وعلى منهاجهم .

---

(١) في النسخة (ب) الغزو ، وهو تحريفٌ واضحٌ .

(٢) في النسخة (ب) أو يعتد .

(٣) في النسخة (ب) وكان طيبًا .

٢٦٣ ـ ويروى عن بعض الحكماء أنه كتب إلى أخٍ له :

أوصيك يا أخي بإصلاح ما بينك وبين الله ، وإيثار محبته على هواك ، والإقبال على عمل من إليه معاملتك ، وقبله حاجتك .

واعلم أن أيامك قليلة ، ونفسك واحدة ، فإذا فنيت أيامك فلا رجعة لك فيها ، ولا عوض لك منها ، وإن عطبت نفسك فلا نفس لك غيرها .

وهل تدري يا أخي ما إصلاح ما بينك وبين الله ؟ .
ألا يأتيه منك شيء إلا كان له فيك رضى ، ولا يأتيك منه شيء إلا كان لك به رضى ، فإن ضعفت عن الرضى بكل ما يأتيك من حكم الله وأمره ، فلا تضعفن عن الصبر ، فإن له الرضا بحال عبده ما دام العبد راضيًا بحكمه ، وله الرضى بصبر عبده على أمره وحكمه مادام العبد صابرًا على ذلك فله فيهما الرضى جميعًا .

وأما عملك فالوفاء بعهده ، والشكر على نعمه .

وأما حاجتك فمغفرته وعفوه ، فإن الله سبحانه وتعالى خلق آدم وذريته ، وخلق الجنة ثوابًا لأهل طاعته ورحمته ، وخلق النار عقابًا لأهل معصيته وسخطه ، فنعوذ بالله من سخطه وعقابه .

٢٦٤ ـ فتعاهد يا أخي أيامك ، في ليلك ونهارك ، وجميع أحوالك ، ما أنت فيه ، وما أنت عليه .

وتعاهد ضميرك فنقه وخلصه وسلمه ، حتى يكون نقيًا مما تخاف عليه العقاب ، فارغًا لما تؤمل فيه من الثواب ، فإنك غير غائب عن الله طرفة عين ، يراك ويحصي عليك مثاقيل الذر ، وموازين الخردل ، ليجزيك بذلك يوم القيامة ، إن خيرًا فخير ، وإن شرًا فشر .

فلا يغيبن عنك ذكره ، فإن حاجتك إليه ، إذ لا حاجة له إليك .

٢٦٥ ـ واعلم يا أخي أن أصل كل قول : العلم ، وأصل كل عمل : العلم ، وأصل كل ذلك التوفيق ، مع صحة تركيب العقل ، وكثرة الفكر ، فإن قدرت ألا تكون بشيء أعلم منك بالله فافعل ، فإن القول ، والعلم ، والعمل وغير ذلك هو المراد به تبارك وتعالى ، وأن أفضل الناس أقربهم من الله ، وأقربهم منه أعلمهم به .

٢٦٦ ـ وقد بلغنا أن النبي ﷺ قال : « يتفاضل الناس بالمعرفة » [١] .

٢٦٧ ـ وقال ابن مسعود : ذهب عمر بتسعة أعشار العلم .

وإنما يعني بذلك العلم بالله .

٢٦٨ ـ واعلم يا أخي أن الناس يخلصون في أعمالهم على قدر معرفتهم بالله ، [وإنما يثقون بوعد الله على قدر معرفتهم به ، وينصحون لله على قدر معرفتهم به] [٢] ، ويتواضعون لله على قدر معرفتهم به ، [ويصدقون في كلامهم على قدر معرفتهم بالله ، ويرضون عن الله ، ويسلمون لأمره ، ويفوضون إليه أمورهم على قدر معرفتهم به] [٣] ، ويشكرون الله على نعمه على قدر معرفتهم به ، ويرجون الله ويخافون على قدر معرفتهم به ، ويحسنون به [٤] الظن على قدر معرفتهم به ، ويصبرون على طاعته ، وعن معصيته ، على قدر معرفتهم به ، وعلى كتمان طاعته ، وعلى المصائب التي تنزل بها أحكامه على قدر معرفتهم به ، ويحبون ما أحب ، ويبغضون ما أبغض على

(١) لم أقف عليه .

(٢) سقط من النسخة (ب) وهو في (أ) .

(١) زيادة من النسخة (أ) ليست في (ب) .

(٢) انظر السابق .

قدر معرفتهم به .

٢٦٩ ـ فمن فاتته المعرفة بالله دخله النقص في جميع ما ذكرنا على حسب ما فاته من المعرفة ، وعلى حسب ما رزق منها ، فكذلك حظه من الخير والشر.

فالتمسها يا أخي من مليكها التماس من لا يستأهل أن يعطاها ، فإن العلماء قد صاروا إلى ما صاروا إليه من العلم على قدر ما أحسنوا من الطلب ، ووضع الأشياء مواضعها .

فإذا أصبحت وأردت شيئًا من الخير فانظر كيف شكرك على ما أنعم به عليك ربك في ليلتك ، وكيف توبتك مما يتاب منه ، فقد قال تبارك وتعالى : ﴿ **لئن شكرتم لأزيدنكم** ﴾ (١) .

وقال : ﴿ **وتوبوا إلى الله جميعًا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون** ﴾ (٢) .

٢٧٠ ـ وإذا دخلت في شيء من الخير فانظر ممن كان بدؤه ، وعلى من إتمامه ، وأنه لو قيل لك : من أحب إليك أن تعمل له ؟ لقلت : الله ، فليحقق ضميرك قلبك ما عبر وأقر به لسانك .

من دقائق المعرفة والعلوم :

٢٧١ ـ واعلم ياأخي أن أهل الدنيا والآخرة بين سرورٍ وهموم .

فأهل سرور الآخرة أهل الجنة ، وإن أفضل سرورهم النظر إلى الله ، وإن أفضل سرور المؤمن في الدنيا سروره بربه ، وبأنه عبده ، وتصديق ذلك : أنسه بمراقبته ، ومناجاته ، وبكل ما يعمل له ، وعلامة أنسه بعمله وجود حلاوة العمل له ، وشدة الحب لخدمته .

---

(١) سورة إبراهيم : ٧ .

(٢) سورة النور : ٣١ .

ومحال أن يستأنس العامل بعمله ، وهو غير مستأنس بمن يعمل له ، أو غير خائف منه .

٢٧٢ ـ واعلم يا أخي ، لو أن الذي تطلبه وتعالجه من نفسك من الطاعة ، والاستقامة لله كنت تعالجه من جميع أنفس ولد آدم لكان في الله قليلاً ، فكيف وهي نفيسة واحدة في أيام قليلة .

فالزم يا أخي المحافظة ، والمدوامة على التعاهد في المراقبة ، فلو كانت الدنيا كلها لك ، فبذلتها ونفسك معها ، شكرًا لما أنعم عليك من معرفته ، وأنه ربك ، وأنت عبده ، وأنه هو أمرك بعبوديته ، ونهاك عن عبودية غيره ، لكان ذلك كله قليلاً حقيرًا في جنب نعمته عليك في ذلك .

فلا تضيعها بشغل ما لا حاجة لك فيه ، فإنه لا غنى بك عن معرفة إحسانه إليك ، كما لا غنى بك عن معرفة إساءة نفسك ، فإن العبد بين ذنب ونعمة ، وبين شكر واستغفار .

والحمد لله على ما أنعم علينا وعلمنا [ما لم نكن نعلم] (١) ، وكان فضل الله علينا عظيمًا .

٢٧٣ ـ ويروى عن بعض الحكماء أنه قال :ـ

أحمد الله إليكم حمد من لا يعرف إحسانًا إلا منه ، ولا يعرف معبودًا غيره ، وأسأله توكل المنقطعين بصدق الانقطاع إليه .

أما بعد ..

فإن الله تعالى خص أهل ولايته بغبطة الانقطاع إليه ، ليعرّفهم تواتر نعمه ، ودوام إحسانه وفضله ، فانصرفت هموم الدنيا عن قلوبهم ، وعظم شغل

(١) زيادة من (أ) ليست في (ب) .

الآخرة في صدورهم ، لما سكنها من هيبة ربهم ، فألزموا قلوبهم ذل العبودية ، وطرحوا أنفسهم في محجة التوكل على الله .

٢٧٤ ـ واعلم يا أخي أنك لا تكون متوكلاً على الله إلا بقطع كل مؤمل دون الله .

وكيف لا تسخو نفسك بقطع كل علاقة من قلبك ، وتفرغ قلبك للإقبال على الله ، وصدق التوكل عليه ، والله حسب من توكل عليه .

والمتوكل الصادق في توكله : القليل من عطايا الله عظيم عنده ، عند صغر قدره ، لمعرفته بعظيم قدر الله ، فهو ساكن إلى روح اليقين ، وهي المنزلة التي يغبطه بها أهل الحرص على الدنيا .

فمن سكن قلبه إلى أنه ليس نعمة في السماء والأرض إلا وهي لله ، استراح قلبه من عذاب الحرص ، أما سمعته يقول :ـ

﴿ هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء ﴾(١) .

وقال : **﴿ ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴾**(٢) .

فإذا ألزمت الثقة قلبك ، فإنما أنت ناظر إلى الله ، لأن الملك لله دون خلقه ، وبقدر تركك الثقة يعظم حرصك على الدنيا .

حال المتوكل على الله تعالى :

٢٧٥ ـ وخالف حرصك على الدنيا بالقنوع بما قسم لك ، فإنك تسرع في عداوة الحرص على الدنيا ، لأن الحرص لا يعطي ولا يمنع .

والمتوكل على الله استغنى بالمعطي المانع عمن ليس بمانع ولا معط ، فهو غنى

---

(١) سورة فاطر : ٣ .

(٢) سورة الأعراف : ٥٣ .

بالله عمن سواه ، فقير إلى الله ، قد سكن قلبه عن الاضطراب ، فليس لمخلوق في قلبه خطر .

فمن وثق بغير الله لا يغنيه ، والمتوكل لزم التقوى ، فجعل الله له مخرجًا ، ورزقه من حيث لا يحتسب ، ولم يقل من حيث يحتسب ، وقال : ﴿ **ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرًا** ﴾ (١) .

فالمتوكل توكل على الله في حاجاته كلها ، من أمور آخرته ودنياه ، وقطع رجاءه ممن سواه ، ولم ير نفسه موضعًا لاختيار نفسه ، لأن الله حسبه ، ومن كان كذلك فقد سكن إلى روح اليقين .

وهذه المنزلة التي لا منزلة أرفع منها في سكون القلب إلى الله ، والطمأنينة بموعود الله ، لأنه قد جعل الله حسبه من جميع خلقه ، ومن كان الله حسبه فلا يجد فقد شيء ، لأن الله قد ضمن له ، وهو بالغٌ أمره .

٢٧٦ ـ واعلم أنك والخلق جميعًا مضطرون إلى الله في كل حالٍ ، وفي كل حركةٍ ، وكل سكونٍ ، لأنه الغني وحده ، ومن وثق بغير الله فقد رأى بأن ملكًا أكبر من ملك الله ، ومن وثق بالله استغنى به ، لأن الله حسبه ، وفي الله خلف من جميع الخلق ، وليس في أحد من الخلق خلف من الله ، لأن الله هو الغني وحده .

فإذا علمت أن الله حسب من توكل عليه ، فكيف لا تطلب الكفاية بالتوكل على الله عز وجل ؟

ألست تعلم أن الله الرزاق ، فإنه قد قسم بين عباده معايشهم ، وقد فضل بعضهم على بعضٍ في الرزق ، وقد فرغ مما قضى وقدر من ذلك ؟ .

---

(١) سورة الطلاق : ٣ .

فكيف تعنى بعد علمك بطلب ما قد فرغ من مقداره ؟ .

أو لا تسمع إلى قول الله عز وجل :ـ

﴿ **وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير** ﴾ (١) فكيف تطلب كشف الضر من عند غير الله ، أو تطلب النفع من عند غير الله ؟ فكيف تطلب كشف الضر وطلب النفع من عند غير الله ؟ .

وكيف لا يكون الغالب على قلبك طلب كشف الضر ، وطلب النفع من عنده وحده ، إذ علمت أن ذلك كله ، إنما هو بيد الله (٢) وحده ؟ .

وكيف تخاف فوات شيء من الخير يريده الله بك ؟ وإن لم يرده بك فمن يعطيك ذلك ؟ أو ينيلك إياه ؟ .

٢٧٧ ـ والمتوكل على الله لا يلتفت إلى الدنيا ، لأنه لا يراها لنفسه خطرًا ، ولا يراها ونفسه ، وجميع ما فيها إلا الله ، ويستوي عنده ركوب البحر ، والمشي في البر ، والأنس ، والوحشة ، والعمل ، والجلوس ، لأن الله تعالى كاف من توكل عليه ، أو لا تستمع لقوله تعالى :

﴿ **أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه** ﴾ (١) .

فالمتوكل على الله اكتفى بعلمه بالله عن الاشتغال بغيره ، لأنه علم أن الذي يوصل إليه المنافع هو الله وحده لا شريك له .

٢٧٨ ـ وأيضًا : أنه إذا سكن قلبك إلى الله لم تخف غيره ، لأن الله حسب

---

(١) سورة الأنعام : ١٧ .

(٢) في النسخة (ب) بيده .

(١) سورة الزمر : ٣٦ .

من توكل عليه .

ومن علامة المتوكل : أنه يؤثر الصدق حيث يضره على الكذب حيث ينفعه ، لأنه لم يصح لمن توكل عليه أن يخاف غيره .

وكذلك إذا أمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر لم يخش [١] غير الله ، لأن رجاءه من الله أكثر من خوفه من توعد المخلوقين ، لأن المتوكل على الله أخرج من قلبه كل مخوف ومحذور ، ومحزون دون الله ، حتى اتصل خوفه ورجاؤه بالله .

٢٧٩ ـ واعلم أن المعاون إنما تحضر عند إخراج العالم من قلبك ، فتنحاش عند ذلك إلى مسالك العز ، والغنى بالله ، لأنك تعلم أنه لا مانع ، ولا معطي ، ولا ضار ، ولا نافع إلا الله وحده .

فلا ترغب عن الله بجهلك ، فتخضع لمن دونه عند تخويف الشيطان ، فيستولي عليك عند ذلك ، أو لا تستمع إلى قوله : ـ

﴿ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً ﴾ [٢] فما يضرك من مواعيد الشيطان مع ضمان الرحمن ؟ .

٢٨٠ ـ واعلم أنك لا تكون متوكلاً على الله تعالى حتى تسلك منهاج المضي إليه على السكون ، والطمأنينة إلى الله ، وحتى تعبد الله راضيًا بما صيرك إليه ، لأنك لا تعرف غيره .

فإذا صرت إلى هذه المنزلة على قلبك ، عظمته وجلاله ، [واحتقرت دءوب الملائكة الذين لا يفترون] [٣] ، لأن الخلق كلهم مقصرون عن حقه عليهم جل جلاله .

---

(١) في النسخة (ب) إلا .

(٢) سورة البقرة : ٢٦٨ .

(٣) ما بين المعكوفتين سقط من النسخة (ب) وهو في (أ) .

واعلم أن الله سبحانه خص المتوكلين عليه بمنازل السلامة ، وحجب عنهم كل ندامة ، فهم ينظرون إلى الله فيما يأملون .

قد حجب قلوبهم عما سواه ، لما يرجون من إحسانه ، واستغنوا بذكره عن ذكر غيره .

خاتمة

٢٨١ - واعلم أنك لا تكون متوكلاً حتى تصفو من كل ملكٍ لنفسك ، مع ملك الدنيا ، وحتى لا تثق إلا بالله وحده لا شريك له ، وحتى ترى مؤنتك على الله وحده ، فلا يذهبن بك الطمع إلى غير الله .

ألا ترى أن الذي طمعت بما في يديه أليس هو في ملك الله ؟ .

هل في السماء حاجز يحجزك عن الله ؟ .

فاعلم أنك لا تقدر أن تفر من رزقك ، كما لا تقدر أن تفر من الموت ، أما سمعت قول الله تعالى يقول : -

﴿ الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم ﴾ (1) .

٢٨٢ - فاسكن يا أخي إلى موعود الله تعالى في رزقه ، كما تسكن إلى أنك ميت ، واقطع الاشتغال بذكر الأسباب من قلبك .

٢٨٣ - واعلم أن الله يرزقك لسببٍ وبغير سببٍ ، وكل سببٍ فهو ثابت ، لا تعلم متى يأتيك رزقك ، كما لا تعلم متى يأتيك الموت .

ألا ترى أن الله وعدك أن يرزقك وغيب رزقك عنك بالقضاء ، وله وقت ينزل فيه ؟ .

فلو احتلت بكل حيلة أن يأتيك قبل وقته لم تقدر على ذلك ، حتى ينزل في وقته .

أما سمعت الله عز وجل يقول : ﴿ وفي السماء رزقكم وما توعدون فورب

---

(١) سورة الروم : ٤٠ .

السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون ﴾ (١) .

٢٨٤ ـ واعلم أن الواثق بالله نفى عن قلبه التهمة لله ، وإن كنت في ظل سببٍ ، فلا يميلن قلبك إلى السبب ، وليكن قلبك مع الله عز وجل .

واعلم أن القهرمان لا ينفق إلا بأذن السيد ، فاعقد قلبك لسيدك ، لأنه إن أعطاك لم يقدر أهل الأرض أن يمنعوك ، وإن منعك لم يقدروا أن يعطوك ، لأن سلطانه عظيم ، وبتوكلك عليه يكفيك .

فالمتوكل ساكن القلب إلى المضمون ، فمن قطع تعلق القلب بالأسباب ، لم ير شيئًا إلا الله ، لأن قدر الله جار على المتوكل وغيره ، أو لا تستمع إلى قوله تعالى : ﴿ وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم ﴾ (٢) .

وقد علم المتوكل علمًا يقينًا ، وسكن قلبه إلى ذلك ، أن ما قسم له وقدر له ، أو كان في مهب الريح لأدركه ، وأن ما لم يقسم له ، ولم يقدر ، لو كان بين يديه ، وجهد أهل السموات والأرض أن يوصلوا إليه مثل ذرة أو خردلة ما قدروا على ذلك ، وقد قال :ـ

﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم ﴾ (٣) .

وقال : ﴿ وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ﴾ (٤) .

فلم يحق لهم إيمانًا إلا بتوكلهم عليه .

---

(١) سورة الذاريات : ٢٢ ـ ٢٣ .

(٢) سورة العنكبوت : ٦٠ .

(٣) سورة الإسراء : ٣١ .

(٤) سورة المائدة : ٢٣ .

وقال : ﴿ **على الله توكلنا** ﴾ [١] .

وقال : ﴿ **ومالنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا** ﴾ [٢] .

٢٨٥ ـ فالتوكل محض الإيمان ، لأنه فريضة على العباد ، ولا يكون الإيمان إلا بتوكل ، والتوكل يزيد وينقص كما أن الإيمان يزيد وينقص والناس يتفاضلون في التوكل ، واليقين على قدر الإيمان .

• • •

---

(١) سورة يونس : ٨٥ .

(٢) سورة إبراهيم : ١٢ .

تم التحقيق والتعليق على يد أضعف الخلق إلى رحمة خالقه مجدي بن فتحي ، والحمد لله أولاً وآخرًا ، وعلى رسوله مصليًا ومسلمًا .

آخر كتاب آداب النفوس

للمحاسبي رحمة الله عليه

والحمد لله وحده ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه ، وآله وسلامه ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

وكان الفراغ منه في الخامس من ذي القعدة ، سنة اثنين وعشرين وخمسمائة .